

الأبدية بعيدة جداً

ديسمبر 2013

وقصص أخرى

398

تأليف: تيه نينغ

ترجمة وتقديم: د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز

مراجعة: لي جيه

الأبدية بعيدة جداً

وقصص أخرى

تأليف: تيه نينغ

ترجمة وتقديم: د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز

مراجعة: لي جيه

إبداعات

تصدر كل شهرين من
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:
م. علي حسين اليوحة

مستشار التحرير:
أ. وليد جاسم الرقيب

هيئة التحرير:
أ. د. سليمان علي الشطي
د. ليلي عثمان فضل
د. زبيدة علي أشكناني
د. علي عجيل العنزي
د. بدرية أحمد الحجري
د. حنان عبدالمحسن مظفر

مديرة التحرير: لمياء القبندي
سكرتير التحرير: جعفر حسين حيدر

التتضيد والتدقيق اللغوي والإخراج والتتفيذ: وحدة الإنتاج
في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٦٣٢
ردمك: ٩٧٨-٩٩٩٠٦-٠-٤٠٥-٤

• الأبدية بعيدة جدا
وقصص أخرى

العنوان الأصلي

永远有多远
铁凝著
北京燕山出版社
2008 年

الطبعة الأولى - الكويت
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2013م
إبداعات عالمية - العدد 398

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م
تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني
(1990 - 1923)

5	المقدمة
17	الأبدية بعيدة جدا
27	(1)
39	(2)
51	(3)
61	(4)
71	(5)
81	(6)
91	(7)
107	آه، أنت الفتاة شيانغ شيويه
131	من يستطيع أن يجعلني خجولة؟!
163	الصمغ العربي
	(1)
173	(2)
181	(3)
189	(4)

المقدمة

أنجبت الصين ثلة من الكتاب في العصر الحاضر الذين وضعوا إرهاصات الأدب الصيني المعاصر في مرحلة مهمة من مراحل تطور الصين وانفتاحها على العالم الخارجي، بعد أن جثمت العزلة على صدرها زهاء ألفي عام ونيّف، ولا ريب أن الكاتبة تيه نينغ تتبوأ مكانة رفيعة داخل أروقة الدوائر والأوساط الأدبية في الصين في الوقت الحاضر. والبطاقة الشخصية لهذه الكاتبة تذكر أنها ولدت في العام ١٩٥٧ في بكين، وانداحت دائرة مشاعرها في العاصمة، وشهدت شوارعها وحواريها مراتع صباها بين الأهل والأتراب، وانبثقت من عائلة مثقفة، فأبوها رسام، وأمها أستاذة الموسيقى الصوتية، وتأثرت منذ نعومة أظافرها بالثقافة الصينية التقليدية في وسط هذا الجو المفعم بالفن، وتخرجت في المدرسة الإعدادية في العام ١٩٧٥، وبفضل مؤازرة أبيها تكن مشاعر الإخلاص وتنضم إلى الفرقة الإنتاجية في إحدى قرى مقاطعة خبي المتاخمة للعاصمة بكين، واستطاعت بجدارة واقتدار أن تصهر حلمها في بوتقة العصر بأسره من المثل العليا والحكمة، ومن أجل تحقيق هذا الحلم، جعلت الحياة ينبوع الذي لا ينضب للأدب، والحياة تكمن في البقاء المترامية الأطراف في الأرياف، وصارت في رحلتها الأدبية الميمونة وطريقها اللاحب والمبهج والأثير، مصاحبة أمل الدنيا، ودنيا الأمل.

أما البطاقة الفكرية والأدبية للكاتبة تيه نينغ فتذكر

أنها بدأت تنشر أعمالها في مبتكر شبابها وهي طالبة في المدرسة الإعدادية، وانضمت إلى رابطة «الشباب المثقفين». وتبرز للعيان التقاليد والحداثة، والسذاجة والبراءة، ومشاكل الحياة، والحضارة والهمجية، ومسيرة الحياة الاجتماعية وتناقضاتها، والحضارة الحديثة والحضارة البدائية. فهي كاتبة قصصية تمكنت أن تخطو بالقصة المعاصرة في الصين خطوة جريئة إلى الأمام. وفي بدء حياتها الأدبية تنأى بنفسها وقلمها عن أن توصف بأنها تنتمي إلى ما يطلق عليه «الأدب النسائي»، فلم تنحز البتة إلى النسوية أو الجنس الناعم، ولم يك ذلك جلياً وواضحاً في أعمالها، بل - كانت ولا تزال - لا تألو جهداً في تكريس قلمها من أجل تجسيد القواسم المشتركة بين البشر على سطح المعمورة، والدعوة إلى الوئام والانسجام والخير العام، فضلاً عن صعوبات النفس الإنسانية وعذاباتها وويلاتها، والشك والتردد والارتياب داخل الإنسان. ويقودنا ذلك إلى القول، إن كاتبتنا أدركت - منذ بواكير حياتها الأدبية - أن القصة هي أقرب فنون الأدب إلى الحياة، بل إنها الصورة المنتزعة من واقع المجتمع بغرض الإيغال في أعماق الحياة بغية فهمها أو اكتشاف النفس الإنسانية، فالقصة تؤثر في هذا الواقع المتغير أو على الأقل تحاول تغيير هذا الواقع، وهنا تكمن القيمة الكبرى للفن، لأن واقع المجتمع عبارة عن حياة الملايين، والقصة مأخوذة من واقع هذه الحياة، وهي الأكثر تعبيراً أو إدراكاً لتغيير هذا الواقع الذي يتكون أساساً من حياة الملايين ولا تتغير حياتهم إلا بتغيير الحياة.

ولا غرو أن تقول كاتبنا إن: «الأدب ربما لا يضطلع إطلاقاً بمهمة محاكمة البشرية، ولا يقوم بإبراز قوة وسلطان الدولة. وإنما يقع على عاتقه - دائماً وأبداً - مسؤولية فهم العالم والإنسانية، والاهتمام العميق بالفكر الإنساني. إن القوة السحرية للأدب تكمن في أننا يجب أن نتحلى بالمقدرة على التعبير بصورة مستمرة عن أفكارنا تجاه العالم من جديد، وتقصي الحقائق الجديدة في الحياة، كما ينبغي علينا أن نتسم بالجرأة على فحص الذات ومحاسبتها حتى تظفر روحنا بالتقدم والنهوض».

وتناولت أعمالها - في مرحلة المراهقة الأدبية - موضوعين بصورة رئيسة هما: وصف حياة الطفولة، والتعبير عن الطفولة البريئة وسذاجة الطفولة وطهارتها وعفتها كما جاء في قصة «فرح عظيم»، ووصف الحياة الواقعية والتنقيب عن حقائق الحياة، ووصف مآثر الشخصيات كما جاء في رواية «طريق صغير يؤدي إلى البستان»، ثم ما لبثت أن شهدت مرحلة الحصاد الأدبي والإبداع الأدبي بين عامين ١٩٨١-١٩٨٦، حيث كتبت مجموعة من الروايات القصيرة والمتنوعة وتتمتع بالمادة الأدبية الغزيرة، والموضوعات المتنوعة، والطرق الفنية المختلفة. ومن بينها الرواية القصيرة «آه، أنت الفتاة شيوه شاينغ» (١٩٨٦) التي وصفت بدقة وحيوية الحضارة الحديثة التي جلبها القطار لقرية «تاي أر» القابعة في أحضان الجبل وأحدث تغيرات في تلك القرية الجبلية الصغيرة النائية، كما جلب البهجة والغبطة لفتيات القرية

الجبليّة اللواتي يتسمن بالفضول وحب الاستطلاع ويهرولن إلى المحطة لمشاهدة القطار الذي يبدد السكون الصامت في قريتهن، ويقمن بالمتاجرة مع ركابه والعاملين به، ومن بين تلك الفتيات، كانت الفتاة «شيانغ شيويه» الوحيدة في المدرسة الإعدادية في القرية. وتختلف عن سائر أترابها من فتيات القرية وتتحلى بالخجل والحياء، ولا تبدي إعجابها بالملبس والحلي والترف في الحضر، ولكن يستحوذ على إعجابها الحقيقية المدرسية الجلدية، والمقلمة الأوتوماتيكية، وقرض الشعر، وامتحان الطلاب بجامعة بكين، ومن أجل الحفاظ على كرامتها وعزة نفسها وتحقيق طموحاتها وتطلعاتها التي تشوبها السذاجة والعضوية، تصعد بجساراة على جسد القطار المتحرك، وفي داخله تقايض بأربعين بيضة مقابل الحصول على المقلمة الأوتوماتيكية التي تتوق إليها ليلاً ونهاراً. ويجسد ذلك تطلعات الجيل الجديد من الشباب في القرى وفي الأرياف إزاء الأخذ بأسباب الحضارة والمدنية الحديثة.

إن قيمة الفتاة «شيانغ شيويه» لا تكمن فقط في تطلعاتها وآمالها الطاهرة والنقية نحو الحضارة خارج قريتها الجبلية، بل لا تدخرو سعا في تغيير حياتها ومصيرها، وتتحدى بروح الإقدام والكفاح في الحياة، بل تبرز هذه القيمة بصورة جلية في أنها كانت إيذاناً ببدء إعادة بناء الوعي الذاتي لدى الصينيين الذين خرجوا من قمائن ونير الثورة الثقافية الكبرى (١٩٦٦ - ١٩٧٦). كما تمثل التحول الحديث وهو أكثر ما تحتاج إليه الطبيعة التقليدية لدى الأمة الصينية، فالأضواء الساطعة

كانت تعجبها أيما إعجاب من مظاهر الحياة الحديثة في
القطار وأهل الحضر والحياة الجديدة. أما الشاعر الهائجة
كانت من نصيبها في اقتناء مقلمة وفي حياة جديدة، وعندما
عادت إلى القرية كانت تنعم بفرحتين: فرحة أزجهاها ذاك
القطار، وفرحة أفاءها عليها هذا الإرهاص بتحقيق أملها
أن تكون ندا لأترابها في المدرسة بالحضر. وخلاصة القول،
أن الفتاة «شيانغ شيويه» ليست - إطلاقاً - قصة بعيدة،
إنها تمثل في نهر الحياة الطويل لحظة قصيرة تعانق فيها
النقاء والصفاء، وعلى أية حال، هذه اللحظة موجودة حتماً،
ومرهونة بوجود البشرية، إنها الحياة التي يعتمد عليها.

وفي قصة «من يستطيع يجعلني خجولة؟» تصف الكاتبة
الملامح الخارجية الناجمة عن الشعور بالنقص وتتجلى في
تبديل الملابس والتزين والتجميل. وفي عبارة أخرى، أن أبطال
رواياتها في الريف يسعون إلى تحقيق مكانة متكافئة مع أهل
الحضر، وذلك عندما وصفت الصبي الغرير الذي يرسل
عبوات المياه المعدنية إلى الزوجة الثرية الجميلة الأنيقة،
ويحاول محاكاة أهل الحضر في ارتداء الملابس واقتناء
الأجهزة الحديثة، وجذب اهتمام وانتباه الزوجة، ويحاول
إثبات ذاته على الرغم من أنه عامل أجير من الريف، لكنه
يغشى المدينة ويحتك بأهل الحضر، ويحدوه الرجاء والأمل
بأن تبديل ملابسه بصورة مستقرة يحقق تطلعاته وآماله
الكبار، بل يأمل أيضاً أن أهل الحضر يعاملونه كما يعاملون
قاطني المدن وكأنه واحد منهم، الكاتبة وصفت هذه التفاصيل

بدقة متناهية، وغاصت في أعماق الشخصية وجسدت مشاعره الناجمة عن إحساسه وشعوره بمركب النقص الذي يلازمه مثل ظله. إن مثل تلك الشخصيات ترغب في تحقيق القيمة الذاتية، ولكن تخفق في تحقيق مآربها ورغائبها، بل تظل منبوذة تعاني الإقصاء والإبعاد من قبل أهل الحضر الذين يشمخون برؤوسهم ويظهرون مشاعر التفوق أمامهم، مما يجعلهم يستطيعون فقط الحياة على هامش المدينة.

ويمضي الوقت وتسيطر تيه نينغ على فنها القصصي وتتمكن منه، وتبدأ حبات قصتها في التعقيد وتتداخل الحوادث والمواقف والشخصيات، ولكنها ظلت حريصة على أن يبقى هيكل كل قصة واقعية يتركز على حدث حقيقي أو ملاحظة دقيقة أو تجربة واقعية اشتركت فيها أو حصلت على تقرير أو رواية عنها من شاهد عيان. وتعمق إبداعها الأدبي في الحياة بشكل أكبر بين العامين ١٩٨٣ و ١٩٨٤، وجسدت الرواية المتوسطة «قميص أحمر بلا أزرار» التغيرات التي طرأت على مفاهيم وأسلوب الحياة، ويتسع نطاق رؤيتها وعطاؤها المفيض وتقديرها لمعايير الجمال كما تجسد في رواية «كومة من القمح».

* * *

يقول الكاتب المكسيكي الكبير كارلوس فوينتيس: «لا تكون الكاتبة جيدة إذا اكتفت بأن تعكس الأشياء أو تقلد الحياة فقط، لكن حين تتحدث حول ما لم يوجد بعد، أو ما هو موجود لكنه خفي أو ممنوع، عندئذ تصل إلى شيء أعظم

أهمية»، نعم، لقد أحرزت كاتبتنا ما هو أعظم وأبقى.. فهي من أعلام القصة الحديثة، وصاحبة روح مبدعة حققت وسجلت ما فاضت به الحياة الجديدة في الصين من إثراء، وتؤكد قصصها عنصرا مهما في الحياة وهو الإنسانية.. وتصور في كل موقف من مواقفها الغرامية ذلك الثمن الغالي الذي تدفعه لأنها صاحبة عقل وضمير وقدرة على التخيل، وهو أيضا ثمن آدميتها.. فقد كانت مهمتها تقشير الحياة حتى تصل إلى لبها وجوهرها، ثم تعرض علينا وتسألنا عن مغزاها.. فقد احتضنت الخير وجعلت منه عقيدتها حتى تعطي الفرصة للإنسان أن ينمي قواه وقدراته. وتسعى تيه نينغ إلى تثبيت أركان مقولتها بأن الخير موجود، ولكن الخير في هذا العصر ليس رخصة مرور فعالة، ويجابه الخير المصير المضحك والسخرية، فقد ولى زمانه.. وعلى كل حال، بقايا الخير في حياة البشرية صعب أن تجده وقلما تراه.

ولا مندوحة أن تكرر تيه نينغ قلمها وجهدها وجهادها من أجل اكتشاف الخير، ورواياتها قلما تتناول موضوع الموت والفناء بصورة مباشرة.. ونذكر من هنا أنها كاتبة لا تعرف اليأس والابتئاس، ولم تثبط هممتها البتة، على الرغم من حالات آلامها وأحزانها وفقدان الأمل، ولكنها لم تعرف اليأس، ولم يجتاحها التيار الجارف والموجة الهوجاء من الشر التي تغلغلت في أدب القرن العشرين. ولا سيما كتابات الروائي النمساوي فرانز كافكا (١٨٨٣ - ١٩٢٤) الذي ظل طيلة حياته يحاول البحث عن القوة التي تتصدى للشر ومحاربتة، بيد

أنه اضطر إلى الاعتراف على مضض بأنه لم يجد هذه القوة جراء الطبيعة الطابعة للإنسان من التعاسة والشر، ويرى أن الإنسان يفتقر إلى القوة لطرد الشرور من العالم، لأن الإنسان في حد ذاته هو أساس الشرف في العالم، وهنا يكمن يأس وشقاء كافكا.

أما كاتبنا الذواق فلا ترغب في أن تكون أعمالها بمنزلة نتاج لمواساة النفس وتعزيتها، كما ترغب عن الاقتداء بالروائي النمساوي كافكا وتتناول في مادتها الأدبية قصص اليأس وفقدان الأمل، أو بالأحرى أنها لا تستطيع أن تعيش في جلاباب كافكا، وأعلنت انتفاضة الذات على الذات إذا صح التعبير، وراحت تبحث عن أسلوبها الخاص ورؤاها المميزة.. وإذا كان «الشر» الموضوع الفكري الأساسي والأهم الذي تناوله الكتاب في القرن العشرين بعد أن لاذ «الخير» بالفرار من أقلامهم وحروفهم، أو أن مداد أقلامهم جفت ونضب معينها من الخير وقتئذ، فإن كاتبنا حاولت أن تنأى بنفسها عن الكابوس الأدبي في القرن العشرين، وعن «الشر» المقصود به في هذا المقام من المنظور الفلسفي وهو «اليأس المظلم»، «العجز عن العجز»، وليس «الشر» المنصوص عليه في الأعراف القانونية، وأثبتت بجدارة أن الأمل الذي تتحدث عنه هو الأمل الحقيقي الواقعي. وتؤكد الخير الذي لم تدركه البشرية منذ ربح طويل؛ إنه «الخير» الذي تعرض للطرده من قبل الشر واليأس بصورة كاملة، إنه «الخير» الذي يتمكن بجدارة من ذوبان الثلج الجاثم على القلوب والنفوس بصورة جلواء، ويلقي بظلاله

الوارفة من الدفء والحنو على الإنسانية بأسرها.
وباللقاء نظرة عميقة ومتأنية على أعمال كاتبتنا، نجد
أن رواياتها القصيرة والمتوسطة معظم أبطالها من الخيرين
بسطاء السريرة، وليسوا الإنسان الكامل دون شائبة أو
السوبرمان. ويتجلى ذلك بجلاء في الروايات: «تحت الشجرة»،
و«مذكرات رئيس المقاطعة»، و«وجها لوجه»، و«الأبدية بعيدة
جدا».

وتقدم الكاتبة في رائعتها الأدبية «الأبدية بعيدة جدا»
الشخصية النسائية الفريدة، الفتاة «باي دا شنغ»، وتقول:
«في الواقع، ما هي أوجه الاختلاف بينها وبين سائر الناس، إن
الاختلاف الأكبر لديها أنها تحتضن - دائما وأبدا - مشاعر
متدفقة ولّى زمانها، ويغص بها صدرها، فهي مفتونة بالرجل
الذي تحبه، ولكن تفضل في حبها دائما. ومنذ نعومة أظافرها،
هي طفلة مؤدبة، وملامحها مقبولة، وطباعها ودودة للغاية،
وتقول عنها جدتها: إنها طفلة عطوفة وحنونة». وتسجل
الكاتبة لنا تجاربها العاطفية في لمحات خاطفة أو في لوحات
انطباعية سريعة لا تسلسل فيها ولا استمرار، ولكنها شذرات
وأشأت من أفكار الكاتبة وانطباعاتها بطريقة سينمائية
تظهر فيها الصورة أو «اللقطه» لبرهة ثم تختفي رويدا رويدا
لتحل محلها تجربة عاطفية أخرى. والرابط الوحيد بين هذه
اللقطات الخاطفة هو الكاتبة ذاتها التي تتحكم في حركة المد
والجزر هذه أو حركة القبض والبسط. وعدسة الكاتبة المرفهة
التي تعتبر مسؤولة عن إبراز العلاقات بين تجربة وأخرى

بوضعها الواحدة بجوار الأخرى. وتمضي الكاتبة في البحث عن سر الحياة الإنسانية وعن معنى التجربة الإنسانية، واستطاعت أن ترصد تغيرات المشاعر والعواطف لدى «باي دا شنغ» هذه، وتمسك بالخيط من أوله وتبدأ في عملية الغزل وتتحرك مع «المكوك» بين اللحمة والسداة حتى يتم لها نسيج القصة كلها.

وعندما قامت الكاتبة بإضفاء الطابع الخيري على شخصية الفتاة «باي دا شنغ»، لم تجعل الخير رخصة مرور فعالة للإنسان الخير، بل على العكس جعلتها - بسبب هذا القدر من الخير - تتعرض لكثير من المصاعب والأعباء النفسية، والانتكاسة في عواطفها ومشاعرها، فحظها مع الحب غير موات، ولا مطيع.. فولى مدبرا عنها هاربا منها، وأخذتها سنة من الحيرة حول من يملأ فراغها العاطفي. وفي نهاية المطاف، يركع أمامها شاب يحاول الإفادة من ظروفها، وقد كان تخلق عنها، إنه الشاب «قوى هونغ» وترفضه، ولكنها تفكر مليا، ربما لا يوجد هناك من يتقدم لها، وتتزوج من هذا «الإنسان الخير»، إنها «الطيبة الحنونة الودودة» التي ربما لا تصيبها العنوسة، ولكنها تخشى العنوسة.

ولا مرأ أننا نحب في سويداء قلوبنا «الخير» المتراكم داخل مناحي النفس الإنسانية الذي تجسده الكاتبة، فضلا عن اليأس المشوب بالنوايا الحسنة والخيرية، وتستخدم «الخير» في قهر اليأس وفي التعبير عن المشاعر، إنه «الخير» الذي يتسم بالنزول اليسير من الإحساس باليأس حتى نستطيع

في النهاية التصدي ومقاومة اليأس الأكثر هولاً، والأكثر حكمة، لأن «الخير» يتحول ويصبح صبراً، والصبر هو العدو الطبيعي لليأس. إن «الخير» هو القوة الكامنة في التعبير عن المشاعر والأخلاق، والأكثر أهمية، أن الكاتبة تنقب عن بقايا الخير الإنساني داخل حياة البشرية، وتجعل هذا الاستكشاف بمنزلة الفكر الملهم والأساسي في الأدب المعاصر.

وزبدة القول، أن تيه نينغ تدرك تماماً أن البشرية في القرن العشرين تعرضت لسلسلة من الإهانات والعذابات، وتبخرت آمالها، وغربت شمس الإنسانية داخل «الإنسان»، وتبدد الوجود الإنساني ويات سراباً، ومع ذلك، لا تدخرو سعة في أن تجعل «الخير» الميزة الراسخة داخل شخصها والذي لا ينضب معينه، مما دفع كتاباتها وتأليفها الأدبي إلى درجة كبيرة من الصعوبة لم تعرفها من قبل. والميزة كل الميزة، أنها تسعى سعياً حثيثاً للبحث عن غطاء علبة بندورا^(١) لتوصدها بإحكام شديد درءاً للشر في أصقاع المعمورة.

د. عبد العزيز حمدي
القاهرة - مارس ٢٠١٣

(١) بندورا: في التراث اليوناني هي امرأة أرسلها زيوس عقاباً للجنس البشري بعد سرقة بروميثيوس للنار وأعطاهها علبة (Pandora's Box)، ولم يكذب يفتحها بدافع الفضول حتى انطلقت منها جميع الشرور والرزايا، فعمت البشر.

الأبدية بعيدة جدا

هل قطننت في حارات بكين؟ هل كنت طفلا تربي في أزقتها؟
هل مازلت تتذكر تلك الكوكبة من الأطفال الإناث اللواتي
يتسمن بالبهجة، والثرثرة، والسذاجة والبراءة؟
أنا سكنت في حارات بكين، وكنت طفلة في حوارها. وأتذكر
دائما هؤلاء الأطفال الإناث اللواتي يشعرون بالبهجة، ويثرثرون،
ويتحلين بالسذاجة والبراءة. وأشعر دائما أنه إذا لم يوجد هؤلاء
الأطفال هل يمكن أن نسمي الحارة حارة، وهل يمكن أيضا أن
نسمي بكين مدينة بكين؟ ومقولتي هذه تستثيرك ولا تشعر
بالغبطة، وتقول بالتأكيد كل ما يجول في ذهنك، وقل ما بدا
لك. أجل، بكين في الوقت الحاضر إذا لم تكن كما كانت في
عهدا الماضي التليد، كأنها - مرة أخرى - لا تكون متحفظة
هكذا، ولا تستهويها شهرة ولا مغنم أيضا. وفي عبارة أخرى، إنها
مثالية وودودة. وتعرف بكين تماما احتضان الأحرار، إنه العناق
المدهش، والعناق الحقيقي والزائف أيضا، ويعيش في حضنها
العديد والعديد من المغتربين. ولهجة بكين الفقيرة، التي تتردد
في جنبات الحوار وتشوبها بعض التلألؤ والتعتة، لا تحظى
بالترحاب منذ أمد بعيد. وثلة الأطفال الإناث السابقين

اللواتي يتحدثن مثل لهجة بكين الفقيرة تظهر حيناً وتختفي حيناً آخر في الحارات. وشعرهن نظيف ولماع، ويرتدين الأزياء البسيطة (ليست مزرية مسكينة)، وملامحهن رصينة متزنة. وسعة الأفق لديهن ليست كبيرة، مما يجعل المرء يشعر بأنهن قد يتعرضن للخداع في أي وقت. ومنذ عشرين عاماً ونيفاً، كل مرة أزور بكين وأرى الصبايا في أي مكان، أقر دائماً أنهن كن هؤلاء الأطفال الإناث اللواتي عشن في الحارات في الماضي. وإذا كان هؤلاء الأطفال مثل ورقة الشجر، إذن، الحارة هي العروق التي تتلوى كالأفعى بصورة مكثفة فوق هذه الورقة. وإذا فحصت ورقة الشجر في ضوء الشمس، تكتشف أنها متألئة ونقية وصافية، لأن هؤلاء الأطفال الإناث يتخللن تلك العروق، إنهن خلاصة هذه المدينة، والحارات تحتضنهن من أجل مدينة بكين، وجعلن جلد هذه المدينة الروحية لماعاً، ووجهها ندياً، ومفعمة بالمشاعر الدافئة الصادقة، كما جعلوني أيضاً المتفرجة المخلصة على مدينة بكين إلى الأبد، حتى لو انقضى مائة عام آخر.

وعندما غادرت بكين، كنت شبيب عن الطوق وأصبحت بالغة، وبعد أن سكنت في المدينة (B) حيث العيش باطمئنان والعمل بارتياح، كانت لديّ فرصة للعودة إلى بكين كل سنة، وهناك في هذه المدينة أزور بعض كتاب الأطفال وأبحث عن بعض الكتب الشيقة لدار الأطفال للنشر التي أمتلكها. كما ألتقي بالأقارب والأهل، ومن بينهم بنت خالتي الصغرى (باي دا شنغ) الأكثر التقاء بي. وباي دا شنغ تخبرني دائماً ببعض أمورها وتطلب مني مساعدتها في اتخاذ القرار، ولكنها تطرح فكرتي جانباً

دائماً في نهاية المطاف. وتبدو في بعض المجالات لا يمكن إصلاحها أو تقويمها، ولكننا نلتقي دائماً، ومن جعلني أكون بنت خالتها الكبرى ١٩

والآن في شهر يوليو، ركبت سيارة الأجرة بعد الظهر، ورذاذ المطر جذاب ورائع خارج النافذة، واتفقت مع باي دا شنغ على اللقاء في المتجر الكبير «شيدو» في شارع وانغ فوجين، وهناك ليس بعيداً عن فندق «كايلون» الذي تعمل فيه. وبعد أن تخرجت في الجامعة، تم توزيعها للعمل في هذا الفندق ذي النجوم الأربعة، وكانت مسؤولة اتحاد العمال، ثم عملت مديرة قسم المبيعات. وقلت لها ذات مرة: أنت محظوظة، أصبحت رئيسة بمجرد أن انتقلت إلى هذا القسم. وأرسلت زفرة وقالت: محظوظة! كل الذين يعملون في قسم المبيعات هم مدراء، والرئيس هو مدير قسم المبيعات. وفهمت كلامها، ولكن الطباعة في صدر بطاقة الزيارة الخاصة بها تنطوي على تهويل: باي دا شنغ - فندق كايلون - مديرة المبيعات.

وصلت سيارة الأجرة إلى شيكو (المدخل الغربي) في منطقة دينغ شي، وتتراحم السيارات وتسد الطريق في الأمام. وفكرت أنه من الأفضل أن أنزل من السيارة هنا، فالمسافة إلى متجر «شيدو» ليست بعيدة. ونزلت من السيارة، والمطر يهطل، واكتشفت أنني أقف أمام مدخل حارة وتطأ قدمي السلم المؤلف من درجتين حجريتين لونهما أزرق، وصعدت على امتداد السلم إلى أعلى ورأيت إفريز الغرفة المغطى بالقرميد الرمادي القديم. وكان يوجد باب أسفل الإفريز أصلاً اكتسى الآن بالقرميد الأزرق

وأصبح مثل إنسان أشاح بوجهه بعيدا عنك. وصعدت السلم بخطوات واسعة حتى وقفت أسفل الإفريز كأنني ألوذ به من المطر. وربما تجنب المطر ليس مهما إطلاقا، ولكنني أرغب فقط في الوقوف هنا قليلا. والوقوف فوق مثل ذلك السلم جعلني أكثر وضوحا وجلاء عن أي وقت آخر بأنني رجعت إلى بكين، إنه السلم الذي أقف عليه بقدمي وحوافه متهرئة ويحوي درجتين من الحجر الأزرق، والمدخل الغربي الذي أشاح بوجهه بعيدا عني ويقع خلفي، وكذلك الإفريز القديم لكنه ليس باليا، جعلني ذلك كله أتعرف إلى بكين، وأثبت أقدامي في بكين، وأعرف بوضوح كما في هذه اللحظة. حيث إن الشركات والمحلات الجديدة مثل: «شيدو»، و«تيان لون وانغ تشاو»، و«سوق دونغ آن»، و«لاوفويه»... لم يكن في مقدورها أن تجعلني أشعر بأنني في بكين، كما أنها لا تضاهي السلم القديم المتواري في مدخل الحارة في إغرائي واستعادة ذاكرتي السريعة والواضحة مثل الإحساس بالبرد.

في الماضي، في أيام الصيف تلك قبل عشرين عاما ونيفا، أذهب دائما وبننت خالتي الصغرى باي دا شنغ - بعد الظهر - إلى دكان صغير في المدخل الجنوبي للحارة وفق تكليف جدتنا، ونحمل برادا ونشتري قازوزة مثلجة. وحارتنا اسمها «فوما» (زوج ابنة الإمبراطور)، ويوجد دكان البقال في مدخلها الشمالي يبيع الكعك، والمعلبات، وصلصة الصويا، والخل، واللحوم النيئة والمطبوخة، ومنتجات الصويا، ولحم البقر والغنم، وسمك السيف الطازج. وتباع الخضراوات خارج الدكان، ويضعها البائع فوق رفوف البضائع المرصوفة من ألواح البامبو ذات اللون الأصفر

الفاقع، ولا يخشى سرقتها في الليل حيث تبقى في مكانها على الرفوف. ولماذا تسرق؟ أمعقول أن يوجد أناس يتعجلون تناول الخضراوات في جوف الليل؟ وعندما يحتاجونها تفتح الدكاكين أبوابها عند انبلاج الصباح ويشترونها. كما يوجد دكان صغير وهو الذي اعتزم الحديث عنه في المدخل الجنوبي للحارة، وإذا كنا نذهب إلى محلات البقالة في المدخل الشمالي، نطلق عليها جميعا بلا استثناء التسمية المختصرة «المدخل الشمالي»، وبالمثل إذا أردنا الذهاب إلى نظيرتها في المدخل الجنوبي نقول التسمية المقتضبة «المدخل الجنوبي».

وفي الواقع «المدخل الجنوبي» هو فندق صغير، درجات السلم فيه عالية ومرتفعة حيث يحتوي على أربع أو خمس درجات، مما يمنح الشعور دائما بأنك تحتاج صعود مثل هذا السلم متعدد الدرجات لشراء الاحتياجات، ومن هنا فإن مشترياتك بالتأكيد تكون ثمينة وغالية. و«المدخل الجنوبي» لا يبيع صلصة الصويا، والخل، ولكن يبيع الخمر، ومثانة الخنزير المحشوة، وحبوب الفول السوداني، ولحم رأس الخنزير، بالإضافة إلى الآيس كريم، والاسكا والقازوزة في الصيف. ويوجد داخل الفندق طاولتان مستديرتان صغيرتان يكسوهما غطاء بلاستيك طويل العمر هش مثل الرقاق النشوي الجاف، ويجلس أمامهما - دائما وأبدا - رجل أو رجلان متقدمان في السن يحتسيان الخمر مع حبوب الفول السوداني أو مثانة الخنزير المحشوة. وأشعر بأن حبي لأكل هذه المثانة، هذا النوع من اللحم بدأ من «المدخل الجنوبي».

هل تعرف متى تكون رائحة مثانة الخنزير المحشوة أكثر

فواحة؟ إنها تكون عندما يضعها البائع في المرقعة ويحمل ساطورا بيده ويقطعها شرائح. إن الاحتكاك بين السكين الحادة وهذه المثانة يجعلها تنفث رائحتها العطرية وتفوح في جميع أرجاء الفندق. في ذلك الحين، أقف أمام البسطة وأستنشق بعمق هذه الرائحة، وأصدق تماما أن رائحة ذلك اللحم هي الأكثر جذبا في العالم. ولا أفيق من هذه النشوة والرائحة اللذيذة إلا عندما يسألنا البائع ماذا تشترون؟ «أعطنا قازوزة»، كانت هذه المقدمة التي يتفوه بها الأطفال عند الشراء في تلك السنين، ولا نقول: «أنا أريد شراء...»، بل نقول: «أعطنا...»، «أعطنا قازوزة»، «مثلجة أم باردة؟»، «أعطنا مثلجة، قازوزة الشمعية الحمراء»^(٢) «المثلجة». أقول ذلك أنا وياي دا شنغ معا، ثم نعطيه البراد الخاص بنا. نعود إلى تركيز الذهن والانتباه انطلاقا من الرائحة الفواحة لمثانة الخنزير المحشوة، ومقارنة هذه اللحظة برائحة هذه المثانة، يبدو لي أنني أكثر شوقا وتلهفا لشرب قازوزة الشمعية الحمراء المثلجة الحلوة اللذيذة. وتوجد خزانة تبريد بيضاء بجوار بسطة تقطيع مثانة الخنزير، إنها خزانة تغص بالبرودة حقا، وفي اللحظة التي يفتح فيها البائع غطاء خزانة التبريد، نهرول إلى مقدمتها في التو، آه! ينبعث الهواء المبرد مثل كرات الدخان الأبيض ويصفع وجوهنا مثل قبضة اليد ونشعر بالم لا يضاهى. خزانة التبريد تحتوي على الكثير من قطع الثلج، وزجاجات القازوزة من الشمعية الحمراء تندس وسط كومة الثلج تنهاوى تارة، وتتمايل تارة أخرى. البائع يملأ البراد بالقازوزة،

(٢) شجرة (أو شجيرة) لها زعارير عطرية مثل الفار أو الأس الشمعي [المترجم].

وأغادر مع باي دا شنغ الفندق الصغير، ونزلنا من سلم الفندق، ذلك السلم المؤلف من درجات حجرية زرقاء، ثم فتحنا غطاء البراد بسرعة ولهفة. وفي العادة أرتشف أنا - أولا - الجرعة الأولى. وعلى كل حال، أنا بنت خالة باي دا شنغ الكبرى. وتكتشف فيما بعد أن باي هذه الفتاة تبدو تقريبا أنها ترفض إظهار التواضع إزاء الجميع، سواء كان كبير أسرتها أو حتى بنت خالتها الكبرى. ومن ثم، شربت أولا بلا تكلف، ولا أتذكر تماما كيف تدفقت قازوزة الشمعية الحمراء المثلجة إلى فمي، وتدحرجت على لساني، وانزلقت إلى المريء وتخللت عظامي. ولكن أتذكر فقط أن هذه القازوزة جعلت فروة رأسي تقشعر بغثة، وعشرة آلاف إبرة توخر فجأة صدغي، والمحجر أسفل العينين ينثر موجة حرارة في مقابل البرودة، وأشعر بالآلام. آه، إنها البرودة، إنه الثلج. وعرف الناس البرودة والثلاجة في العصور التي لم تشهد الثلاجة، فالبرودة هي فقدان الشيء وتشبه برودة وخز الإبرة، باي دا شنغ متلهفة وتشرب على غرة حتى ترتوي، ورأيتها ترتجف من البرد، وذراعها المكتنزة تظهر موجة قشعريرة. تتحدث معي وهي تكاد لا تلتقط أنفاسها، ويبدو أنها تبولت قليلا! أضحك بصوت عال وأخذ البراد من يدها، وشربت حتى ملأت فمي مرة أخرى، وآلاف الإبر توخر صدغي، وأشعر بالآلم الشديد في محجر العين، وتنهض روحي فورا. تميل رأسي صوب باي دا شنغ التي تقتضي خطواتي، ونعدو بخطوات وثيدة في الحارة التي يلها السكون المطبق. والقطعة الصفراء فوق سقف الغرفة تستيقظ على وقع أقدامنا، إنها

القطعة (نيو نيو) في الدار الرباعية الشرقية رقم (٩)، وتتنقل فوق الأسطح بحثا عن القط الذكور (شياوشونغ) في دارنا، ونهرول على الأرض، ونيو نيو فوق الأسطح تلاحقنا. يا نيونيو، هل شريت قازوزة مثلجة؟ أوه، أنت أيضا لا تشربينها طول حياتك. ونهرول وندلف إلى باب دارنا في طرفة عين. آه، إنها البرودة، إنه الثلج.

باي دا شنغ لم تجار بالشكوى قط في الطريق لأنني شريت قازوزة أكثر منها، ولماذا أنا لا أعرف التساهل والتنازل لها منذ زمن بعيد؟ وأتذكر أيضا ذات مرة كنا نستعد لمشاهدة فيلم «سيهانوك يزور الصين». وأريد أنا وباي غسل رؤوسنا، والماء يغلي، وأندفع أنا أولا وأغسل شعري بمعجون غسيل الشعر. وهذا النوع من المعجون يشبه صفار البيض من اللون إلى الشكل، وله رائحة الليمون، وثمان الكيس ثمانية «فن»^(٣)، وتسمرت قدمي أمام حوض غسيل الوجه، وأشطف شعري مرارا وتكرارا ولا ينتهي الشطف، وعندما جاء دور باي دا شنغ كان الضيلم على وشك العرض. وجدتنا تستعجلها، وانتهيت من غسل شعري وأتظاهر بالجد وأستعجلها أيضا، كأن غسل شعرها يعد عملا يفتقر إلى المنطق أصلا. وأدى ذلك إلى أنها لم تشطف شعرها جيدا، وذهبنا معا لمشاهدة الفيلم. ومشيت وراءها أرى بوضوح خصلة شعرها في مؤخرة رأسها ومعلق فيها قطعة من معجون غسيل الشعر صفار البيض في حجم حبة فول الصويا. وهي لا تعرف شيئا، وتهز رأسها على طول الطريق أملا في أن الريح تجفف شعرها بسرعة بعض الشيء. وأدرك في مناحي نفسي أن قطعة معجون

(٣) فن (Fen): وحدة نقدية من العملة الصينية تساوي ١/١٠٠ من اليوان الصيني أو ١/١٠ من الجياو [المترجم].

غسيل الشعر في مؤخرة رأس باي تعد خطئي، فمنذ عشرين عاما ونيفا أشعر بأن قطعة المعجون هذه تلتصق دائما بمؤخرة رأسها. أرغب كثيرا في أن أبلغها هذا الأمر الذي مضى عليه فترة طويلة. ولكن باي دا شنغ طباعها على هذا النحو، تصر على أنها لا تعي هذا الأمر، وماذا يكون في جعبتك للاعتذار لها، فضلا عن أنها تكدر صفو الجو الذي تعتذر فيه. ومن ثم، أنت من الأفضل تلتزم الصمت، واجعلها قابعة في هذه الحال.

تدور هذه الفكرة في ذهني وأقف في حارة المدخل الغربي (شيكو) في سون دينغ (المصباح)، أقف أسفل الإفريز المتهالك. وأفكر في القازوزة الثلجة، ومعجون غسيل الشعر الذي يشبه صفار البيض، حتى توقف المطر رويدا رويدا، ويجب علي أيضا أن أتوقف وأتجه إلى المتجر الكبير «شيدو».

وانتظرت باي دا شنغ في المقهى بالطابق الثاني في المتجر الكبير «شيدو»، وأحب مقهى «شيدو». ومقاعد المقهى قبالة النوافذ والزجاج الشفاف الممتد إلى سطح الأرض يجعلانك كأنما تحلق في الفضاء، ويرادك الشعور بالفوقية الزائف في طرفة عين. كما تبدو أمامك آفاق واسعة يسبح فيها النظر، ويمكن أن ترفع ذقنك وتنظر بعيدا حيث الشمس الغاربة تبعث ضوءها على البناية التي تعيش في كنف الواقع، ويتألف من ستائر الجدران الزجاجية والجرانيت. كما يمكنك أن تخفض عينك وترى خارج النافذة سيلا من البشر يتدفقون بهدوء أسفل قدمك، حيث يدخلون ويخرجون من «شيدو».

والآن مازال الوقت مبكرا عن الموعد، ولديّ وقت كاف أجلس

هنا في هدوء وأناة. وبعد أن شربت القهوة، أستطيع أيضا التجول في قسم الأزياء الحريمي في الطابق الثامن، وقسم الأدوات اليومية المنزلية في الطابق الرابع، وأحب - على وجه الخصوص - المناشف ومناشف الحمام من كافة الألوان والأشكال والرخام، وينتابني دائما شعور بأنني لا أستطيع الفكك منه عندما أقف أمام الأشياء المادية فترة قصيرة. وطلبت سلطانية كبيرة من «القهوة الإسباني»، وهي عبارة عن الفنجان الخزفي الكبير السميك جدا عندما تحمله يبدو أنه يشبع رغباتك أكثر من «الكابتشينو» وغيره من الأشربة الأخرى. أحتسي «القهوة الإسباني» وسيان عندي أرى أو لا أرى الذين على مقربة مني ويتجولون في «شيدو». وتذكرت أن باي دا شنغ أخبرني أنها عندما تنظر إلى الأشياء تحب أن ترى جوانبها مثل: البناية، والدراجة، وزوج أحذية، والمنبه، وطبعاً يشمل ذلك الرجل والمرأة. وعادة باي دا شنغ هذه تجعلني أضحك من أعماقي، لأن ذلك جعلها تبدو مختلفة عن الناس. وفي الواقع، ما هي أوجه الاختلاف بينها وبين الناس، أن الاختلاف الأكبر لديها أنها تحتضن مشاعر متدفقة ولي زمانها ويغص بها صدري، فهي مفتونة بالرجل الذي تحبه، ولكن تفشل في حبها دائما. ومنذ نعومة أظافرها، هي طفلة مؤدبة وملاحها مقبولة، وطباعها ودودة للغاية، وتقول عنها جدتها «جاو» القاطنة في الدار الريفية الشرقية رقم «٩»، تقول إنها طفلة عطوفة وتتحلى بالخير.

(١)

في مطلع حقبة السبعينيات من القرن الماضي، عندما كانت باي دا شنغ في السابعة أو الثامنة من عمرها، كان العجائز في الحارة يقيمونها ويصفونها بأنها «عطوفة وخيرة». وفي الواقع، أن جملة «في مطلع حقبة السبعينيات» غريبة وتحوم حولها الشبهات قليلا، إنها جملة مبتذلة وتضوح منها رائحة الأسقف الصفراء التي تسربت إليها مياه الأمطار وصندوق خشب الصندل القديم. فضلا عن أنها جملة ليست من الملائم انتشارها على الملأ، ولا تثير داخلي الكثير من قوة الإحساس والتأثر، ولا تشبه تماما سائر الجمل والعبارات الأخرى التي تمنحني الانطباع العميق. وذات مرة، قمنا بزيارة جدتنا جاو في بيتها، وقرأت مذكرات حفيدتها قليلة الكلام الطالبة في المدرسة الإعدادية. كانت تضع مذكراتها - يومذاك - فوق منضدة الشاي السوداء المقوسة كأنما ترحب بالمرء أن يقرأها. وكتبت في مذكراتها هذه العبارة: «على الرغم من أنني أنبثق من عائلة ليست طيبة، ولكن إرادتي الثورية لا يمكن أن تهمد...»، أجل، إن كلمة «تهمد» زلزلت كياني، وجزمت أنها كلمة غريبة وغير عادية في الوقت الذي كنت فيه مازلت لا أفهم معناها تماما.. الحفيدة لا تتحلى بالمعرفة الغزيرة، فكيف استطاعت

استخدام مثل هذه الكلمة في مذكراتها.. وعلى هذا النحو، قدرت هذه الكلمة تقديرا جعلني لا أتجاسر وأسأل الراشدين عن مغزاها الكامن. ودفنت هذه الكلمة في سويداء قلبي أملأ أن يساعدني الزمن على الاقتراب منها وفهمها. وباي دا شنغ الحنونة والعطوفة، جعلتها تسير على درب الخير والعطف والمروءة.

وتتمتع باي دا شنغ بالحنان والعطف حقا. فعندما كانت في الفرقة الأولى بالمدرسة الابتدائية، تحمل على ظهرها الجدة جاو التي سقطت في دورة المياه العامة وتعود بها إلى البيت (نقول بدقة تسندها بذراعها). وفي الفرقة الثانية، تحملت مسؤولية إلقاء بول وبراز الجدة كل يوم. وجدتنا لا نستطيع أن تجلس على حضرة القرفصاء في دورة المياه، وتتغوط في الغرفة يوميا. وأبواي ليسا في بكين وقتئذ، ونحن والجدة يعتمد كل منا على الآخر في الحياة. وعندما كانت باي دا شنغ في الفرقة الثالثة بالمدرسة الابتدائية، كانت دور الخيالة في الكثير من المدن الصينية تعرض الفيلم الكوري «فتاة تباع الزهور»، الذي جعل كل دار الخيالة تبكي بكاء صامتا. كما أجهشت بالبكاء أنا وباي دا شنغ عند مشاهدة الفيلم، ولكنني لم أبك مثلها بتركيز وانهماك. وذلك لأن الرجل الذي يجلس في الصف أمامي كان يبكي تارة، وتارة أخرى يستجمع قوة ظهره في ألم ويضرب فجأة ظهر الكرسي، ويبدو منظره كأنه أصابه مس من الجنون، وأحدث جلبة صاخبة، ولكن لم يجأر أحد بالشكوى لأن الجميع منهمكون في البكاء. وذلك الرجل الجالس على يساري يحملق في الشاشة الفضية وأجفانه ترف، ولا يكفكف دموعه مهما انسالت، ولا يمسح مخاط

أنفه النقي الذي يتدلى وبلغ طوله ثلث متر.. وكانت باي دا شنغ تجلس على يميني، وفيما يبدو أن البكاء جلب لها حالة من الاحتياج، وراحت تتجشأ بقوة. واكتشفت من بداية عرض هذا الفيلم، أن بنت خالتي الصغرى لديها نقيصة حب التجشؤ. وإذا ركزت انتباهك على سماع صوت تجشؤها، تجده يشبه دائما صوت الرجل العاطل المتسكع، لا سيما في فصل الشتاء بعد أن تأكل الفجل الزراعي والذي نسميه «جمال القلب»، فإنها تتجشأ مرات عديدة بصوت خشن ضخم، ومثير للاشمئزاز وتشعر بالارتياح أيضا، وتشببها بـ «الرجل» يجعلني أشعر بالحزن، لأن باي دا شنغ ليست رجلا، كما أنها ليست عاطلة ومتسكعة. ولكن، بعد عرض هذا الفيلم، بدأ زملاء باي دا شنغ في المدرسة يسمونها «باي مالك الأرض» وذلك لأن اسمها «باي» كان أيضا اسما لمالك الأرض الشرس في فيلم «فتاة تباع الزهور». وفي بعض الأحيان، هناك بعض الطلاب في الحارة عند رؤيتها يقولون بصوت عال عن قصد: «جاء باي مالك الأرض، حضر باي مالك الأرض».

وهذا اللقب أهان وخط من قدر باي دا شنغ. ويبدو أن هذا الشعور من الإهانة كان بمنزلة الضغط والانهيال المعنوي داخلها. ويتجول في الحارة دائما بعض الأشخاص البالغين المتشائمين، إنهم بمنزلة «عناصر من أربعة أنواع» تحت المراقبة، ينظفون الجدران، ويكنسون الشوارع، ويحنون ظهورهم وينظفون المرحاض. وكانت باي دا شنغ تعتمد في كل مرة ترى فيها هؤلاء الأشخاص في الحارة - منذ أن شاهدت فيلم «فتاة تباع الزهور» - أن تمشي شامخة الرأس مرفوعة الصدر، ولسان حالها

يقول للجميع: أنا لست باي مالك الأرض، أنا أختلف عن ملاك الأراضي! كما كانت تسألني دائما: أي، تكلمي، بالإضافة إلى التشابه في الاسم باي مالك الأرض، هل هناك أوجه تشابه أخرى بيني وبين هؤلاء الملاك؟ إن باي دا شنغ لا تشبه ملاك الأراضي مطلقا، ولكنها أصبحت شخصية رائعة انطلاقا من عدم اضطلاع الآخرين بالبحث عن شبيه لها، مثل شخصية «هواني» في فيلم «فتاة تباع الزهور»، تلك الشابة الجميلة طيبة القلب. وأنا واثقة بأن هذا الفيلم جعل كثرة كاثرة من المتفرجات الشابات يتولد لديهن خيال، يتخيلن أنفسهن يشبهن هواني.. وهنا يكمن السعي وراء القلب الطيب والمروءة، فضلا عن التطلع إلى أن يصبحن من الحسنات بشغف. وعندما انتهيت من مشاهدة الفيلم الألباني «الموت ولا الاستسلام»، تخيلت أن ملامحي تشبه تماما المحاربة الثائرة في الفيلم وتدعى «ميلا» وتؤثر الموت ولا الاستسلام، والدليل الوحيد لدي أنه عندما اعتقلت كانت ترتدي ثيابا من ذات المربعات الصغيرة، وأنا أيضا عندي ثوب لونه أزرق في أبيض وبه مربعات صغيرة، وأتحيل أنني «ميلا»، وأتوق بشغف أن يوجد بين زملائي في الدراسة من يقف ويقول إن ملامحي تشبه «ميلا». وفي تلك الأيام، كنت أرتدي يوميا الملابس ذات المربعات الصغيرة وتنتشي نفسي غرورا بصورة مصطنعة. كما أتذكر جملة في كلام الممثل جاءت في ذلك الفيلم عندما كان الضابط «ناسوي» يستجوب القائدة «ميلا»، وهي رئيسة قوات العصابات، وتوجد شامة كبيرة سوداء بجوار شفقتها، وأعطاهم كوب ماء، ولكنها رفضته وقالت وهي تضحك ببرود: «شكرا، أفهم إنسانية الفاشية!».

أشعر بأنها رائعة حقا في كلام الممثل، إنها جملة شامخة وتنضوي تحتها آلاف الجمل، وبدأت تعلم الضحك ببرود وفتور قبالة المرأة، وكنت دائما أقوم بإغراء باي دا شنغ بأن تتجاوب معي وأطلب منها أن تصب لي كوب ماء، وعندما تحمله وتأتي به أمامي، أضحك ببرود وأقول: «شكرا، أفهم إنسانية الفاشية!».

تضحك باي دا شنغ بصوت مكتوم، وتقول تعليقا على تصرفي: «رائعة في تقليد ضحكة ميلا»، وتبدي إعجابها بتمثيلي، ولم تصبح «فاشية» إطلاقا، وتصب جام غضبها علي لأنها لا ترغب في ذلك، على الرغم من أنها تحمل فوق رأسها «اللقب البغيض» وهو «باي مالك الأرض». ويبدو أنها تتحلى بالشعور الفطري من الطاعة والانصياع نحوي، حتى في اللحظة التي اعتبرتها «فاشية» لا تنقلب فجأة وتصبح خصما لي. والفرق ليس كبيرا بين «الفاشية» و«باي مالك الأرض». ولكن باي دا شنغ لا تثير حافظتي. ومن أجل ذلك كنت دائما أستغرق في التأمل والتفكير العميق، نظرا إلى أن الطالب أطلق عليها تسمية «باي مالك الأرض» وشعرت حقا بأنها تصبح من «ملاك الأراضي» مع تقادم الزمن، وهل من المعقول أن مالك الأرض لا يجوز أن يطيع الشعب؟ وكنت أنا وقتئذ «شعب» باي دا شنغ. وبالإضافة إلى ذلك، أن ملامحي أجمل منها، ولست غبية مثلها على هذا النحو. وكانت الجدة تسبها دائما بأنها غبية حيث إنها لا تجيد تقشير الثوم جيدا، بل على العكس يتسرب عصير الثوم إلى شقوق أظافرها، وتبكي بحرقة، وترفع بشكل واضح مضرب الذباب، ولكنها - دائما وأبدا - لا تجيد أيضا ضرب الذباب حتى يموت. كما أنها أضاعت

النقود وكوبون الزيت، وفي ذلك الحين، كان شراء زيت الطعام يستند إلى كوبون الزيت، ويحصل كل فرد على مائتين وخمسين جراماً من زيت الفول السوداني كل شهر. وفقدان كوبون الزيت يعني شراء الزيت بالسعر المتفق عليه، ونصف كيلو جرام من زيت الفول السوداني بهذا السعر يساوي يواناً وخمسة ماوات، أعلى بمقدار الضعف عن سعر التكافؤ. وذات مرة، دلفت باي دا شنغ إلى المدخل الشمالي لشراء زيت فول سوداني، بيد أنها فقدت كوبون الزيت والنقود قبل دخول باب الدكان. ولعنتها الجدة بأنها شاردة اللب طوال اليوم، وقالت لها: «أنت غبية، ويتعين عليك تعلم كيفية تركيز الذهن بشكل أكبر، بل إن ذهنك أكثر اضطراباً وارتباكاً من الآخرين»!

وفي رأيي أن شرود الذهن والتركيز هما الشيء نفسه حقاً. ولماذا باي دا شنغ فقدت النقود وكوبون الزيت؟ وذلك لأن الشاب «تشياو» حضر وأقام في بيت الجدة جاو الكائن في الدار الريفية الشرقية رقم «٩». وذهن باي دا شنغ في تلك الفترة تركّز في الاهتمام بالشاب تشياو، ومن ثم أصبحت شاردة اللب. والشاب تشياو هو ابن شقيق الجدة جاو، وهو ممثل راقص في فرقة الرقص والغناء خارج المقاطعة، ويمثل دور الشاب «داتشون» في المسرحية الراقصة «فتاة الشعر الأبيض» التي تؤديها هذه الفرقة. وفي رقبته ورم صغير، وجاء إلى بكين من أجل إجراء العملية ويقطن في بيت الجدة جاو. و«داتشون» هو الشاب الجميل الأنيق الذي لم تعرفه الحارة من قبل، وعمره يقترب من العشرين عاماً، وشعره أجعد في رأس أعوج بصورة طبيعية، وحاجباه سوداوان،

وعيناه كبيرتان، وشفثاه غليظتان، وقوامه هزيل معروق ولا يبدو ضعيفا، ويرتدي الزي العسكري بلا شارة الطوق، ويضع شارة على القبعة، وهذا الزي يعد «نموذجا للفرقة» حتى يتحلى بالمؤهلات لتوزيع الملابس. ولا يزرر الزرار الأول من البزة العسكرية، ويظهر قميصه من فتحة الرقبة لونه أبيض باهر ويغص برائحة فواحة تجعل الناس يتوددون إليه. ومن ثم، تكون الفتاة شديدة الإعجاب به بالتأكيد. وعلى كل حال، كنا نحن الأطفال الإناث اللواتي لا يمكن أن نسميهن سيدات هن أكثر الناس الذين يلتقون به، وأين يذهب السيدات إذ ذاك؟ إنهن لسن مثلنا حقا، حيث يستطعن فقط الاحتشاد في فناء الجدة جاو طوال اليوم، ويلتفضن حول «داتشون»، ويحدثن جلبة عارمة. وكان «داتشون» يتحلى بالصبر الكافي نحونا، ويعلمنا الرقص، وتمثيل أوبرا «فتاة الشعر الأبيض» التي فيها «داتشون»، ينقذ «شي أر» ويخرجها من كهف الجبل، ويضع طاولة مربعة في منتصف الفناء، ويسند بجوار المنضدة مصطبة صغيرة وقصيرة، يضع بجوارها مصطبة صغيرة أخرى أقصر من الأولى، وعلى هذا النحو يكون السلم يتألف من ثلاث درجات داخل الكهف.

وتشهد الذروة الفنية لهذه الأوبرا عندما تسحب يد داتشون الفتاة شي أر ويغريها أن تصعد هذا السلم في خطوات تعلو ارتفاعا حتى تنتهي من صعوده وتدلف إلى «الكهف»، ويجعلها ترى ضوء الشمس داخله، وتعجب بالكهف وتحبه، وداتشون وشي أر صدرهما متشامخ، ويركل كل منهما الآخر بقدمه في تشكيل

فني جميل رائع. إنه تصميم يهز المشاعر، ومشهد مثير، إنه الحلم الجميل في سويداء قلوبنا. وتتوق كثرة كاثرة من الأطفال الإناث في الحارة إلى تمثيل دور «شي آر» مرة واحدة في هذا المشهد. وضوء الشمس في الكهف ليس مهما بالنسبة إلينا، بل المهم أن نستقبل ذلك الضوء مع «داتشون» ذي الشعر الأجعد معا، ونسحب يده. جلسنا في قلق مضطربين على المصطبة الصغيرة التي تتوسد صحن القناء ننتظر اللحظة التي يحين فيها دورنا، يحسد كل منا الآخر، ونتبادل التشجيع أيضا. وكان الشاب «داتشون» لا يميل ولا ينحاز لأحد دون الآخر، وطلب منا أن كل طفلة تمثل دور «شي آر» على الأقل. وكانت باي دا شنغ الوحيدة.. كانت الوحيدة التي رفضت التعاون مع «داتشون» على الرغم من أنها ذهبت إلى الدار الرباعية الشرقية رقم «٩» أكثر من أي طفلة أخرى.

وكادت باي دا شنغ - في مرات عديدة - تستشاط غضبا من الجدة لأنها لا تستطيع أن تصل إلى هذه الدار الرباعية بسرعة بقدر المستطاع بعد العشاء كل يوم. وذلك لأن هذا الميقات يتزامن يوميا مع غوط الجدة. ولا تستطيع باي دا شنغ مغادرة البيت إذ يجب عليها التخلص من براز وبول الجدة في الخارج. وفي تلك الأثناء، يكون تم الانتهاء من «ديكور» أوبرا «فتاة الشعر الأبيض» في هذه الدار. آه، إنها لحظة تعذيب الإنسان حقاً! والجدة تتبرز بهدوء وبطء هكذا، وتجلس هناك وتدخن، وأحيانا تلبس نظارة الإبصار الشيخوخي وتقرأ الكتاب الضخم من قياس «٣٢» المعنون بـ «سجل خطب الزعيم ماو». ويجعل ذلك الجدة تظهر بأنها قاسية القلب، ولماذا لا تفهم - ولو قليلا - ما يعتمل في صدر

باي دا شنغ؟ وأنا أقف جانباً ويصرخ قلبي أن التخلص من براز ويول الجدة ليس مهمتي تارة، وأتعاطف مع ابنة خالتي الصغرى باي دا شنغ تارة أخرى. وكلما قلت لباي دا شنغ: «أذهب أنا أولاً على كل حال»، بدأت باي دا شنغ التوسل إلى الجدة والتذلل لها، ولكنها شجاعة أيضاً وتقول: «هل انتهيت من التبرز؟»، أ تستطيع التبرز بسرعة بعض الشيء؟ صوت باي دا شنغ ينفذ إلى الحجرة التي تفصلها ستارة الباب. ولكن طلبها الملح من جدتها يجلب نتائج عكسية على وجه الخصوص، وذلك لأنها الإنسان باي دا شنغ، ويجب أن تكون حنونة وعطوفة. وبالتأكيد ترد عليها الجدة القابعة وراء الستارة، وتقول ماذا أصاب هذه الطفلة اليوم؟ أ يوجد من يتحدث مع العجوز بهذه الطريقة؟ ولماذا تربيتك جعلتك متحفظة هكذا؟ لا يجوز أن يتوقف التبرز.

وتضطرب باي دا شنغ أن تجلس خارج الحجرة وتنتظر الجدة. الجدة تضاعف زمن التبرز عقاباً لباي دا شنغ. وفي ذلك الحين، أكون هرولت مثل خيط الدخان ودخلت إلى الدار الرباعية رقم «٩» منذ فترة طويلة. ويعتصر داخلي ألماً لأن قوتي خائرة ولا أستطيع الدفاع عن الحق، كما تتوق نفسي إلى حضور باي دا شنغ مبكراً. وتحضر باي دا شنغ غالباً، وتجلس - دائماً وأبداً - في ركن لا يجذب الأنظار، على الرغم من أنها تتلهف بشدة لأن يركز «داتشون» نظراته عليها. وأنا الوحيدة التي تعرف شهوة الشوق والتلهف داخلها. وذات يوم أخبرتني أن الشاب شياو غير مدرج في سجل الأسرة في مدينة بكين، ويجب أن يعود أدراجه إلى بيته بعد العملية، أليس كذلك؟ وقلت: آه، أمر مؤسف

للغاية. وتجمدت تعابير وجهها وقتئذ، وحملت بعينين باهتتين وفاترتين نحوي، بيد أنها تبدو لا تراني تماما، وتحسست يدها وقلت: آي، آي، ماذا أصابك؟ كانت يداها باردتين على غير المتوقع، مما جعلني أتذكر قازوزة الشمعية الحمراء الثلجة، كانت يدها تبدو كأنها انتشلت توا من خزانة التبريد. كانت في العاشرة من عمرها في ذاك العام، وحرارة يدها ليست مثل من في عمرها حقا، إنها حماسة لا يمكن أن تعبر عنها النفس، وتمنيات حارة لا يمكن أن يصفها اللسان. وفي هذه اللحظة، كان يحدوني الأمل أن أجلس في ركن باي دا شنغ، ثم فكرت بصورة فجائية أن أجعل «داتشون» يركز اهتمامه على ابنة خالتي الصغرى. وقلت بصوت عال: «أيها الشاب تشياو، باي دا شنغ لم تمثل دور «شي أر» بعد، وتتوق إلى تمثيل دورها مرة واحدة! تشياو صاحب الشعر الأجدد يؤدي دور «داتشون»، ويتقدم نحو باي دا شنغ. كان تشياو حميما ومتفائلا هكذا، ويمد يده إلى باي دا شنغ ويدعوها للتمثيل. ولكنها ترفض مرة بعد أخرى، وتغمغم بصوت منخفض: «كلا، أنا لا أصلح للتمثيل، ولا أجيده، ولا أعرفه، ولا أكون ممثلة، أنا لست كفؤا للتمثيل...»، تتفوه بتلك الكلمات في وجه الشخص الودود، وتظهر آنذاك أسلوبا غير ودي أصاب الجميع بالدهشة. تطأطئ رأسها، وتصر على أسنانها، وتشبك يداها خلف ظهرها. ورفضها جعلني أشعر بما لم يكن في الحساب، ولم أفهم ماذا أصابها، ولماذا ترفض بقوة اللحظة التي كانت تتربحها منذ ربح طويل. وأنا الأكثر معرفة بتطلعاتها وآمالها لأنني تحسست يدها الباردة. وفكرت أنها تشعر بالحياء بكل تأكيد، ثم قلت بصوت

مرتفع ينطوي على التشجيع: أنت تستطيعين التمثيل، أنت كفاء للتمثيل، ويردد معي ذلك أطفال آخرون. كأنما نشجع معا باي دا شنغ الضعيفة المتخاذلة، وأيضا نشفق عليها وهي لا تضاهينا. لايزال «داتشون» يمد يده إليها، ولكن جعلها ذلك تشعر بالخوف، وبدأت ترفض بصوت عال وتنكمش وتتقهقر إلى الخلف. ويتصعب جبينها عرقا، وتبدو عليها علامات العناد شديد المراس، وليس لها معين. وتقلص حجمها وتراجع إلى الخلف بعزيمة قاسية لا تلين كأنها تستخدم هذا المشهد كي تبرهن على إصرارها بعدم الانصياع حتى لو ماتت ضربا. في هذه الأثناء، يمد «داتشون» يده الأخرى، وهكذا أصبح يمد ذراعيه إليها في إشارة واضحة أنه يعتزم أن يحتضنها من فوق المصطبة، إنه بجلاء يريد احتضانها حتى يشجعها على صعود المنصة. وشاهدنا تمثيل الشاب شيوا هكذا، لقد كان منظرا بارزا غير عادي. أما باي دا شنغ فلم تتقمص ملامح الراقص، ولم تتكلم بصوت عال مرة أخرى، وتقول: «لا»، لأنها فقدت القدرة على الكلام، ثم طبت على الأرض وأصابها الدوار، لقد أصابتها السكتة القلبية.

وبعد انقضاء عدة سنوات، أخبرتني باي دا شنغ أن الإغماء التي أصابتها في سن العاشرة كانت بمنزلة حبها الأول. وقالت بصورة تحليلية إنها في ذلك الحين كانت تمقت نفسها للغاية وتفتقر إلى وسائل مجابهة الذات. وفي يومنا هذا، أصبحت باي دا شنغ بالغة في الثالثة عشرة تصر على القول إن ذلك الشاب تشياو هو أجمل رجل رآته في الصين. وأنا بعد أن شبيت عن الطوق لا أوافق على كلامها مرة أخرى، لأنني بالفطرة لا أحب

الرجل كبير العينين مزدوج الجفن. وعلى أية حال، لم أزجرها، ولكن أصدرت تنهيدة عميقة تحسرا على «حبها الأول» الذي بلغ ذروة الغباء وقمة العنف. والشاب تشياو، الذي لم نقابله فيما بعد مرة أخرى، لا يعرف - إلى الأبد - أن الطفلة باي دا شنغ التي كانت في العاشرة من عمرها في ذاك العام وتقطن في حارة «فوما»، قد أصابها الإغماء بسبب حبها له. وهو لا يصدق - إلى الأبد - أن طفلة عمرها عشر سنوات تصيبها إغماءة شديدة لأنها تستطيع حقا أن تحب رجلا جميلا في سويداء قلبها. والرجال في مثل هذه السن لا يقومون باستجلاء أفكار أنثى عمرها عشر سنوات. وفي عين تشياو، أن هؤلاء الأطفال الإناث هم مجرد ثلة من الأطفال فقط، يحتضنهن مثل أي طفل آخر. ولا يعرف - إلى الأبد - أنه عندما مد ذراعيه أثار عاطفة حب عنيفة هكذا في أعماق قلوبهن، وسبب جرحا لمشاعر العديد من هؤلاء الأطفال الإناث في الحارة بغير قصد. وقد أدركن بعد التمثيل معه دور «شي أن» على المنصة نفسها، أنه - في الواقع - لا يكثرن بهن أصلا بعد كشف النقاب عن حبه للطفلة «شياو ليو» القاطنة في الدار الرباعية الشرقية رقم «٣» في حي شيدان في قلب بكين، إن قلبه تعلق من أول نظرة بطفلة شيدان «شياو ليو» التي يعرفها القاصي والداني في الحارة، ولماذا طفلة في العاشرة من عمرها من الممكن أن تقع فريسة إغماءة من أجل رجل، بينما طفلة شيدان «شياو ليو» التي لم تر عينها بصورة مباشرة «داتشون» من الممكن أن تجعله مولها ومضتونا بها.

(٢)

ربما كان عمر فتاة شيدان «شياو ليو» تسعة عشر عاما، أو ربما سبعة عشر عاما آنذاك، وانتقلت مع أسرتها إلى حارة «فوما» منذ بضع سنوات خلت. وتقطن أسرتها في البيت الشمالي المؤلف من خمس حجرات في الدار الرباعية الشرقية رقم «٣». وكان مستر جيان وزوجته يمتلكان ذلك البيت أصلا، ثم اضطرا إلى الانتقال إلى حجرة البواب. ومستر جيان رأس مالي صغير كان يدير صيدلية قبل التحرير. أما أبو الفتاة شياو ليو فيعمل نجارا مشهورا في شركة البناء.

والفتاة شياو ليو قامة أبويها قصيرة نحيفة وضامرة، ولكنهما أنجبا الكثير من الأطفال وقاما بتربيتهم، ولديهما ثمانية أطفال، أربعة ذكور، وأربع إناث. الأطفال الذكور قامتهم عالية وأجسامهم قوية. والأطفال الإناث حسناوات ممشوقات القوام والقد. وأفراد العائلة من غير المثقفين، وعندما انتقلوا إلى الدار رقم «٣» كانوا يفتقرون إلى السرير، وينامون على ألواح السرير، ويأكلون الأطعمة الخشنة، ويحتسون دائما حساء الخضراوات وخبز الذرة المبخر. والفتاة الجميلة شياو ليو الجميلة حقا تربت ونشأت على طعامهم وشرابهم ونامت

على ألواح سريرهم. وحاجباها ليسا الأكثر جمالا بين أخواتها، بيد أن تكوينها رائع وجميل بالفطرة ويفتتن به الآخرون حتى النخاع، كما أنها تتمتع بالمشاعر الغرامية الفطرية التي تجذب الرجال. وبشرتها تشبه لون البطاطس، جميلة ورقيقة وتفوح منها رائحة طيبة وحلوة تغص بالدفع مثل النشارة الجديدة، وعيناها الواسعتان المرطبتان الدقيقتان تبدوان نصف مغمضتين دائما، كأنها لا ترى الأشياء أمامها بوضوح، أو كأنما تعتمد أن تخفي أهدابها الطويلة تلك مقلة العين السوداء المتقدة. كما أنها تستخف بالطفلة التي تسير على درب العادات الروتينية وتقنع ضفيرتها بشدة، أما هي فتقنع صفائرها وتجعلها رخوة لينة دائما، وتترك خصلات من شعرها الناعم يطير حول سوافها، مما يجعلها تتحلى بالجرأة التي تطاول السماء، وتبدو نعسانة ومرهقة، ومزهوة بنفسها أيضا، كأن رأسها غادرت الوسادة توا، بل أكثر شبها بالفتاة التي عاشت مع الرجل حياة المجون والاستهتار. وفي الواقع، من المحتمل جدا أنها انتهت في الحال من شطف القدر الذي طبخت فيه حساء الخضراوات، أو تناولت أعشاب الخردل الذكية المملحة مع خبز الذرة الأصفر المبخر. وفي المساء كل يوم، عندما تأكل خبز الذرة المبخر وتشطف القدر تظهر عليها علامات الإرهاق والكسل على هذا النحو، وتستند على مدخل الباب فترة، أو تمخر عباب الحارة بأسرها حتى تصل إلى دورة المياه العامة. وعندما تترجل في الحارة تبرز للعيان بصورة كاملة قوامها المشوق الذي يخطف الأنظار ويسلب لباب الناس. وكان ذلك في زمن ارتداء البنطال

الفضفاض ولا تعرف الوسيلة التي لجأت إليها شياو ليو وعدلت بنطالها وجعلته يجرؤ على غير المتوقع أن يلف بإحكام خطوطه الملتوية ويجسد جسمها. وتتهاوى في مشيتها، وقوامها ممشوق، وجمعت بين الصفات الفريدة من المشي البطيء والقدر المشوق، وطريققتها في المشي أظهرت نوعاً من الجاذبية والسحر جعلها تشعر بالأنفة. وتلبس شبشبا عادة، وتصبغ أظافر قدمها بلون المشمش الأصفر الكريه باستخدام عصير المجزاعة^(٤).

وفي ذلك الحين، من يتجاسر على صبغ أظافره في الحارة، بل في بكين كلها، إنها شياو ليو الوحيدة التي تتجاسر على ذلك. وعندما تمشي لا يلتفت إليها أحد، كما أنها أيضاً تعتزم عدم الاكتراث بالآخرين لأنها تدرك أنه لا أحد يعيرها اهتماماً في الحارة. وعلى كل حال، فتاة مثلها تفتقر إلى صديقات، ولكنها غير ذات بال لأن لديها أصدقاء. وتنضم إلى عصابة أطلق عليها «ارتال شيدان»، ولقب «فتاة شيدان شياو ليو» حصلت عليه بعد انضمامها إلى هذه العصابة. والعودة إلى حقيقة اسمها ربما يجب أن تسمى «شياو ليو»، لأنها تبوأ الترتيب السادس بين أخواتها. والعصابة التي انضمت إليها شياو ليو يحتشد فيها عشرة من الشباب وأكثر الذين لا يطالعون الكتب (بل ليس لديهم كتب يقرأونها) ولا يعملون، ويتحدرون من منبت عائلي طيب، ولا يخافون السماء ولا يرهبون الأرض، يتنقلون بين حارات حي شيدان بصفة خاصة، ويضطلعون بالأعمال الشريرة من خطف القبعات العسكرية، وسرقة الدراجات، وأجراس

(٤) نبتة تنفتح أوعية بذورها إذا لمست [المترجم].

الدراجات، ثم يحملون المسروقات من تلك القبعات والأجراس إلى مكتب وساطة يبيعونها ويحصلون على النقود التي يبتعون بها السجائر والخمر. وكانت القبعات العسكرية وأجراس الدرجات - في ذلك العهد - بمنزلة تطلعات في حياة كثير من الشباب، وإذا استطعت الحصول على قبعة عسكرية من القطن المخملي وقتئذ يكون أفضل من اقتناء معطف كشمير جودته ممتازة في عالم اليوم، وإذا استطعت تركيب جرس في دراجتك يومذاك، فهي أفضل من الهاتف النقال الجميل الذي تضعه في جيبك اليوم. وشياو ليو داخل أروقة صفوف هذه العصابة كانت - كما قيل - الفتاة الوحيدة ولا تشارك في خطف تلك القبعات وسرقة تلك الأجراس. وكانت سعادتها تكمن في أنها تنام مع جميع الرجال داخل صفوف هذه العصابة. إنها تنام معهم إلى درجة أنها يعوزها التفكير في المنفعة المادية التي تتسم بها الفتاة من هذا النوع، ولا يوجد سبب في جعبتها لهذه الممارسة ما دامت تشعر بالغبطة والبهجة لأنهم يحبونها. وتبلغ ذروة فرحتها عندما تجعل الرجال يقعون في حبائلها، وتجعلهم أيضا يتعاركون من أجلها.

وطبعا، لا يخفى عن أعين الناس خلاعتها ومجونها. وأبوها النجار ربطها في الفناء وجعلها تركع فوق خشبة الغسيل. وكان من المقدر أن تجعل إخوتها لا يرفعون رؤوسهم، ولكن علاقاتها بهم كانت طيبة بصورة غير عادية.. وعندما تركع فوق خشبة الغسيل، يتزاحمون أمام الأب للتوسل إليه بالإجابة عنها. وكان الركوع عقابا لها ويستغرق وقتا طويلا دائما، وتستطيع الركوع

من بعد الظهر إلى منتصف الليل في بعض الأحيان. وأبوها ينزع ملابسها الخارجية في كل مرة. وكان استعطاف الأب من قبل إخوتها غير ذي جدوى. ويشعرون بالألم الدفين في أعماقهم عندما يرونها تتضور جوعاً وترتعد برذاً فوق خشبة الغسيل. وأخيراً، ذات مرة، عرف شركاء شياو ليو وأصدقاءها في صفوف العصابة أنها تركع الآن فوق خشبة الغسيل، ثم شنوا «سطوا مباغتاً» على الدار رقم «٣» في الحارة في جوف الليل، وتسلقوا الجدار ودخلوا الفناء، وفكوا شياو ليو من أسرها، ولفوها في بطانية صوف فيها الخيوط الحمراء تتعاقب مع البيضاء، وحملوها على مناكبهم وغادروا الفناء. وبعد ذلك، اعتلى كل واحد منهم دراجته المصنوعة من الفولاذ المنجنيزي ماركة العنقاء «٢٨». وشحذوا قوتهم مرة أخرى، واستعرضوا عضلاتهم وتهديدتهم بالقوة، وفي الوقت نفسه، دوت الأصوات الجلية الناعمة للأجراس المعلقة على أذرع الدراجات، وحفوا بشياو ليو، واختفوا عن الأعين مثل عصفه ربح في الحارة.

سمعت أنا وباي دا شنغ جلبه الأجراس التي تخرق الآذان في الحارة في جوف الليل في ذاك اليوم. كما سمعتها جدة الأم وجحظت عيناها وقالت في حيرة بالتأكيد حادثة وقعت في دار فتاة شيدان شياو ليو. وفي اليوم التالي، انتشرت أقاويل في الحارة حول تعرض شياو ليو لعملية «اختطاف». وأثارت هذه الأقاويل شدة التأثير والانفعال التي لم أستطع أنا وباي دا شنغ كبح جماحها، فضلاً عن الفضول والشعور بالقلق. وهرولنا في الحارة نطوف على مقربة من الدار رقم «٣» أملاً في العثور على

دليل عملي من كافة الجوانب يقودنا إلى رأس الخيط في هذه الأقاويل. وسمعنا - فيما بعد - أن الشقيق الثالث لشياو ليو هو الذي أفشى المعلومات السرية إلى عصابة شيدان، وليس شياو ليو التي أخبرت أصدقاءها بالعقاب الذي تتعرض له في دارها. من رآهم يلفون شياو ليو ويخطفونها في بطانية صوف فيها الخطوط الحمراء تتعاقب مع البيضاء؟ ومن يستطيع أن يميز بين الألوان بجلاء في جوف الليل؟ ومن يعرف أن تلك البطانية تتعاقب فيها الخطوط الحمراء والبيضاء؟ وظهرت إلى حيز الوجود بعض هذه الأسئلة، ولكن مثل تلك الأسئلة - بالنسبة إلينا - تفتقر إلى الجاذبية. ومن الصعب أن ننسى مثل هذه الثلة من الرجال الذين يعملون كرجل واحد ويوحدون تصرفاتهم، وينقذون الفتاة القابعة فوق خشبة الغسيل ويحبونها. ولكن أسلوبهم في إنقاذها أحدث هزة في أعماقنا. ويبدو أن شياو ليو باتت أكثر غرابة وعجبا هكذا، حيث عادت أدراجها إلى بيتها بعد بضعة أيام كأن شيئاً لم يحدث، وبدأت في الأصيل تسند ظهرها على الباب وتقف في الشارع.. وتأخذ في يدها إبرة صنارة. وتضع في جيبها كرة الخيط الأبيض، وتهز معصمها وتحبك ياقة بسيطة عادية تشبه أسنان الكلب. ومن المحتمل جدا أن ابن أخ الجدة جاو القاطن في الدار رقم «٩»، أنه «داتشون» صاحب الشعر الأجعد ينظر إليها آنذاك، وشياو ليو - بالتأكيد - في ذلك الحين ترمقه بطرف عينها من المقلة السوداء أسفل أهدابها. وكان التعارف مقدرا لهما ولا تعوقهما أية عقبات. وسمعنا الجدة جاو تقول لجدة أمها إن «داتشون» الموسوس انتهى من

عمليته منذ فترة طويلة، وأرسلت إليه وحدة عمله رسائل عديدة، تحثه فيها على العودة إلى العمل، ولكنه لم يولها اهتماما، ولم يكثر بنصيحة الجدة جاو، ولم يكن في الحسبان أن يطلب الزواج من شياو ليو وتغادر معه بكين. تضحك شياو ليو وتقهقه وترفض كلامه، ولكنها تختلس الوقت وتتقابل معه. وفيما بعد، تم ضبطهما في الحوش الخلفي للجدة جاو من قبل ذلك الشريك في عصابة شيدان. وكما حدث في تلك الليلة، تسلقوا الجدار ودخلوا الحوش، ولفوا شياو ليو المتجردة من ملابسها في بطانية وخطفوها، أما «داتشون» فقد ضربوه ضربا مبرحا، وهددوه بالخنجر وطرده من بكين.

وذكر البعض في الحارة أنه في تلك المرة التي تتسلل فيها أفراد عصابة شيدان إلى الحوش الخلفي لدار الجدة جاو كان من تدبير شياو ليو عن قصد. واستجاب داتشون لرغبتها بمجرد أن ارتعشت. وكانت غبطتها الغامرة في فضح الرجل أمام عينها. وإذا كان هذا الكلام حقيقيا، فإن شياو ليو تبدو حقيرة إلى حد ما. وتستغل الجمال والقبح معا في إحداث جرح غائر في قلب «داتشون».

وغادرت بكين في تلك الفترة، ورجعت إلى جوار أبوي في المدينة «B». وكان أبواي آنذاك انتهايا حالا من العمل في مدرسة الكوادر (السابع من مايو) في جوف الجبل، وكان أول عمل اضطلعوا به بعد عودتهما إلى البيت هو استعادتي من بيت جدة الأم، حيث يريدان أن أواصل دراستي في هذه المدينة. وكانا يحرصان على أن نجتمع ونمكث معا، بيد أن قلبي معلق

منذ ربح طويل بحارة «فوما» في بكين. وأعرف أن هؤلاء الكبار البالغين في الحارة لا يشقاقون إليّ أنا الطفلة التي تربطني بهم علاقة، ولكنني منهمكة كل الانهماك في الشوق إليهم مثل: «داتشون»، ذي الشعر الأجدد، وفتاة شيدان شياو ليو، والجدة جاو، بل حتى أتوق إلى القطعة نيونيو في دار الجدة جاو. ويدور في مخيلتي إذا أصبحت القطعة نيونيو أستطيع المكوث طوال الليل والنهار مع «داتشون». كما أستطيع أيضا أن أرى قصته الكاملة مع شياو ليو. وسمعت أنه عندما ألقى أفراد العصابة القبض على «داتشون» وشياو ليو في الحوش الخلفي لدار الجدة جاو، كانت نيونيو تعوي فوق سقف البيت. إنها تعوي وتهيب بالناس للإنقاذ، أم تهتف شماتة في مصائب الآخرين؟ ولكنني أريد أن أصبح قطعة هل لأنني أعتزم أن أرى ما هي القصة بين «داتشون» وشياو ليو؟ لأنني ما زلت لا أعرف ماذا يفعل رجل وامرأة اجتماعا معا من منظور عمري وقتئذ. وكانت حالتي النفسية ليست الحسد والغيرة حتما، بل كنت كسيرة الفؤاد بصورة فوضوية، وحزينة بصورة تبتعد عن صميم الموضوع، وذلك لأنني لست مثل باي دا شنغ «أحب» ابن أخ الجدة جاو بصورة مجنونة هكذا، كما أنني أمقت أن تقول الجدة جاو إن شياو ليو أصبحت الجنية الثعلبية. وأحب هذا الشاب «داتشون» وهذه الفتاة شياو ليو، وأحب شياو ليو بشكل أكبر. ولا أصدق أنها تعمدت أن تفضح «داتشون» في ليل ذاك اليوم، وإذا افترضنا أنها قصدت ذلك، فلماذا؟ وسامحتها في صميم قلبي، وأظهرت ملامحي دناءة وخسة آنذاك. وهذه الفتاة صاحبة العادة السيئة من صبغ

أظافر قدمها باللون الأصفر المشمشي أحييت في داخلي مشاعر الحرية السوداء اللانهائية، وأظهرت على الملأ أحلامي التي أتوق فيها أن أكون مثل تلك الفتاة المفعمة بشعور الجريمة. وبعد عشر سنوات ونيف، شهدت فيلم «الملكة الفاتنة المصرية» بطولة الممثلة إيزابيث تلر، وعندما رأيت الملكة المصرية الفاتنة توصي الناس أن يلفوا جسمها شبه العاري بالسجاد الإيراني وحملها على الأكتاف إلى أمام الإمبراطور القيصر، جال بخاطري في التو الفتاة شياو ليو في حارة «فوما»، تلك الفتاة الحسنة، وتلك الشخصية التي تشبه هذه الملكة، وهي أيضا الشخصية التي لعنها الرجال والنساء شفاهة.

ولم أخبر بنت خالتي الصغرى باي دا شنغ بمشاعري وأفكاري تجاه الفتاة شياو ليو منذ زمن طويل جدا، انطلاقا من اعتقادي أن ذلك يعتبر من المحرمات، ففي تلك السنة التي شهدت اختطاف شياو ليو، أصاب باي دا شنغ الإغماء بسبب حبها لـ «داتشون». وبالإضافة إلى ذلك، ومع قدوم مطلع الثمانينيات من القرن الماضي، عاد البيت الشمالي المؤلف من خمس حجرات الكائن في الفناء رقم «٣» إلى صاحبة مستر جيان، وانتقلت أسرة شياو ليو إلى مكان آخر. لقد اندثر ظلها في حارة «مافو»، وليس في جعبتي ثمة ضرورة بالتأكيد أن أذكر اسم شياو ليو أمام باي دا شنغ. حتى جاءت الفرصة ذات مرة، منذ عامين تقريبا، عندما كنت أنا وباي دا شنغ في بار «شيانغ مونتونغ» (برميل الخمر المصنوع من شجر البلوط) في حي يهانلتون في بكين، ورأينا شياو ليو هناك. إنها لم تذهب هنالك للتسلية، إنها أصبحت الآن صاحبة هذا البار.

إنه بار صغير يقلد الأسلوب الأجنبي ويعج بالنشاط، كما يغص بروائح مختلطة ومفعمة على غرار قاعات الطعام الأجنبية من روائح جسم الإنسان، والقرفة، والغرنوقي (إبرة الراعي)، والكارى.. ويبدو أن النشاط التجاري للبار لا بأس به، وأضواء الشموع فاتنة، والزبائن كثر معظمهم من الأجانب. ويعلق على الجدار بعض جلود الحيوانات والسهام وغيرها من هذه الأشياء. كما توجد - أمام طاولة البار - مغنيتان من أمريكا الجنوبية تعزفان على الجيتار الإسباني وتصدحان بأغنية «قبلني يا جيمي». في هذه الأثناء، رأيت شياو ليو. وعلى الرغم من أنني لم أرها منذ عشرين عاما ونيفا، بيد أنني تعرفت على ملامحها عندما وقعت عيني عليها في ظلال أضواء الشموع الخافتة. ومن أجل ذلك، أكره القصص المفبركة حسب الأهواء والروتينية، وتقول إن فلانا وفلانا لم ير أحد منهما الآخر منذ أكثر من عشر سنوات ولم يعرف أحدهما الآخر تماما، ومن هنا ينبثق العديد من سوء الفهم وغيرها من الأمور الأخرى، وكيف من الممكن أن يحدث ذلك؟ وعلى كل حال، لا أجيد هذا التكلف والتصنع. لقد تعرفت إلى شياو ليو في عقدها الثالث وأكثر، أليس كذلك؟ ولكنك لا تستطيع أن تصفها بـ «صفات الرجل العجوز الذي أكل عليه الدهر وشرب وأصبح مثل اللؤلؤ الأصفر». وترتدي فستانا أسود رقبتة منخفضة، وتعلق في أذنها قيراط ألماظ شكله مثل عباد الشمس، وشديدة البدانة، ولكن تكوينها متناسق، وما زالت جميلة وفاتنة، ومفعمة بالثقة تجاه هذا الجمال. والآن تمشي وتتقدم إلينا، ومشيتها تشبه نظيرتها في الماضي في حارة «مافو»، وخطواتها

حرة طليقة، وتعابير وجهها أكثر مودة عن ذي قبل، فقد ذاقت من الدنيا حلوها ومرها. وتظهر ملامحها أنها تعيش حياة هنيئة ومرتاحة البال جدا، على الرغم من أنها تتحلى بالسوقية إلى حد ما. وقلت لباي دا شنغ: هه، إنها فتاة شيدان شياو ليو. وفي ذلك الحين، تعرفت علينا شياو ليو وأقبلت نحونا، وتقدمت وقالت: كنا جيرانا في الماضي. تضحك وتطلب من النادل أن يحضر لنا كأسين من الشراب، هدية منها تكريما لنا. وتنطوي ضحكتها على مودة استعادة ذكريات الماضي في موطن الإقامة، وهي ضحكة لا تمقتها، وتخلو من الشعور بالإكراه على البغاء. وضحكت أنا وباي دا شنغ في وجه شياو ليو أيضا. وضحكتنا خالية من النوايا السيئة، وانتابنا شعور الدهشة لطفلتين عاشتا في الحارة في الماضي وتعرفت كل منهما إلى الأخرى فجأة. ولا تعرف كيف ندعوها، واضطررنا أن نبسط ذلك، كما مدحنا بارها مدحا كبيرا في أدب ولا يفسد الحقيقة. وتقبلت مدحنا بفرح شديد، وتلوح بيدها وتنادي على شاب في مكان ناء ومنهمك في عمله، ومناكبه عريضة وظهره ضخيم. يحضر الشاب أمامنا وتقدمه إلينا شياو ليو قائلة: إنه زوجي.

وفي مساء ذلك اليوم، قضيت أنا وباي دا شنغ ليلة هنيئة جدا في بار «شيانغ مو تونغ» وجعلتنا شياو ليو وزوجها، الذي يصغرها بنحو عشر سنوات على الأقل، ننتهد تحسرا مرة تلو الأخرى. كنا نتحسر على هذه الفتاة التي لا تقهر، الفتاة التي لا تهزم مثل اللغز تماما. وطلبت مني أن أخمن من هي الفتاة الأكثر تقديسا لديها؟ ولم أستطع التخمين، وقالت إنها الفتاة

شياو ليو، إنها منذ نعومة أظافرها تقدسها. كما أنها تتلهف أن تستطيع وتصبح مثل فتاة شيدان شياو ليو: فخورة بنفسها، جميلة الطلعة، تجعل الرجال يلتفون حولها، وتصادق منهم كما تشاء. وتقف عادة أمام المرأة الخاصة بالزينة، وتقلد شكل الفتاة شياو ليو من ضفر الشعر بصورة رخوة، ثم تشد مرة تلو الأخرى عدة خصلات من شعرها على صدغها. ثم تتكئ على إطار باب الحجرة الداخلية، وتتدلى جفونها، وتبدو عليها أمارات الحيرة فترة من الوقت، وبعد ذلك تترك إطار الباب، ولم تعد تدرك جوهر الموضوع مرة أخرى، وتمشي مترنحة في الحجرة وتدور داخلها عدة لفات. وتتأمل نفسها في المرأة، فهي شديدة التأثير وتتحرك في الظلام مثل الخفافيش، مضعمة بالثقة، وخدمت همتها أيضا. رأسها مثقلة بمثل هذه الأفكار وتهرول خارج البيت إلى الشارع، وطبعا لم تهرول قط على هذا النحو وتغادر بيتها وتهرع في الشارع، ولم يرها أحد - وأنا أيضا - تقلد المنظر الغريب للفتاة شياو ليو.

في ذاك المساء، كانت عيني تحديق في باي دا شنغ ذات القامة العالية مثل الفرس، وتمشي بجواري، وأحديق في جانبها أيضا، وأفكر أنني لم أفهم هذه الفتاة حقا.

(٣)

بعد أن شبت ابنة خالتي الصغرى باي دا شنغ عن الطوق، ظلت نقية السريرة وشريفة في إطار الحنان والعطف، مما جعلني أشعردائما بأن ذلك هو البقية من الأخلاق في هذا العالم. وكانت طالبة مجتهدة في المدرسة الإعدادية وفي الجامعة أيضا. كما كانت رئيسة قسم الدعاية في اتحاد طلاب الجامعة عندما كانت في الفرقة الثالثة الجامعية. ومن طبيعتها الشعور بالبهجة لمساعدة الآخرين، والمشاركة بحماس في الأنشطة الاجتماعية، ومهما كلفها التأخير في دروسها تشارك في الأنشطة المتعددة والمختلفة. وتفكر في الخفاء ربما لا تحب فحص ذاتها في الأصل. وكانت تدرس في قسم علم النفس، وأحيانا تعود خلسة إلى مسكن الطالبات وتغط في نوم عميق، ويتزامن ذلك مع ميقات إلقاء المحاضرات. ولكن هذا التصرف لم يعوقها عن التخرج بسلاسة. وبعد التخرج، التحقت بالعمل في فندق النجوم الأربعة كايلون، ثم عملت بصورة دائمة ومستقرة في قسم المبيعات. وهناك تبيع العقارات والاعتماد فقط على الزبون غير المستدام، والزبون الدائم لشركات السياحة ليس كافيا، ويجب الأخذ بزمام المبادرة والبحث عن مصادر البنزنس. وكان هدفها مؤسسات الاستثمار

المشترك والفردى، ووكالات الشركات الأجنبية فى مدينه بكين. ويجب عليها دائما - فى المباني الإداريه كتلك المؤسسات - التنقل بلا روية وزياره الأشخاص فى المكاتب من أجل الترويج لحجرات الضيوف فى فندق كايون مع تقديم بعض الشروط التفضيلية. وأطلق موظفو هذا الفندق على هذا العمل اسم «التجول فى كافة أرجاء المباني». وعندما تسمع الأذن هذه التسمية تشعر بقوة جبارة قاصمة. إن إلقاء نظرة خاطفة إلى المباني أو جذب الزبائن فى طرفه عين ليس إطلاقا ضريا من ضروب التسليه. ولم يهتد تفكيرى دائما إلى ما تعتمد عليه باي دا شنغ وتعتبره رأس المال فى علاقاتها العامة لـ «التجول فى أرجاء المباني». أو فى عبارة أخرى، تفتقر باي دا شنغ دائما إلى سند يجعلها تتفوق فى العلاقات العامة حيث إن ملامحها عاديه، وشعرها خشن وقصير، ولا تهتم بهندامها، وتحب ارتداء قمصان الرجال، وعلى الرغم من أن قامتها ليست قصيرة، ولكن خصرها طويل وقدمها قصيرة، كما أن مؤخرتها بدينه، مما جعلها تبدو غبيه أثناء سيرها فى الطريق. وإنجازاتها فى «التجول فى أرجاء المباني الإداريه»، جعل اسمها فى الطليعه فى قسم المبيعات. وما الذى تعتمد عليه «باي دا شنغ»، هل تعتمد على خصالها التى تتمتع بها منذ نعومة أظافرها حتى الكبر من «العطف والخير»؟ هل تعتمد على المشاعر الحقيقيه التى تتدفق من سويداء قلبها فى معامله الناس، وتوقعك فى الحيره؟

وعندى خبره ودرايه بالمشاعر الحقيقيه لدى باي دا شنغ فى معاشره الناس. وعندما كانت باي فى الفرقة الثانیه الجامعيه

في ذاك العام، جاءت إلى المدينة «B»، للمشاركة في التدريب العسكري المغلق لطلاب الجامعات في معهد القيادة العسكرية. واتصلت بها هاتفيا عندما انتهت من التدريب العسكري، وطلبت منها ألا تعود إلى بكين أولا، بل تمكث يومين في هذه المدينة وتقيم في بيتي. وكنت تزوجت توا آنذاك وفي أقصى درجات السعادة، وأرغب في أن ترى باي دا شنغ بيتي الجديد وتتعرف إلى زوجي (وانغ يونغ) الذي ذكرته لها مرات عديدة وكثيرة. ووافقت باي دا شنغ بسرور. وكان حديثها الهاتفي مع زوجي حميما للغاية واهتمت به اهتماما كبيرا. واستقبلناها ودخلت بيتي، وأعددنا لها مأكولات طيبة ومتنوعة وكثيرة. وتذكرت سنوات طفولتي في حارة «مافو»، وشراء القازوزة المثلجة من المدخل الجنوبي في الحارة. كما اشتريت - على وجه الخصوص - مثانة الخنزير المحشوة التي تعتبر أشهى المأكولات بالنسبة لي ولباي دا شنغ منذ عهد الطفولة. وأسرع أبواي، وخالة باي دا شنغ وزوجها بالحضور إلى بيتنا، وتناولنا الطعام معا. وقال الجميع في صوت واحد: التدريب العسكري جعل بشرة باي دا شنغ سمراء، كما جعلها قوية أيضا. ومن هنا كان رأس الخيط في الحديث. وحدثتنا باي دا شنغ عن أيام تدريبها العسكري. ولا شك في أنها تضرر حيننا غير محدود للتدريب العسكري، وقدمت لنا بالتفصيل الأنشطة اليومية، من البكور والنهوض من الفراش إلى المساء والخلود إلى النوم، والتدريب على القتال مع حمل الحقيبة على الظهر، وارتداء الزي العسكري الملون، والأشياء التي تباع في دكان الجيش، وقائد الفصيل طيب القلب الذي يعاملهن

بصرامة، ولكن الجميع لا يشعرون بالامتعاض منه، وهو من أهالي مقاطعة شاندونغ، وكلامه فيه لكمة، ولكنه ليس سوقيا البتة. وأنتم لا تعرفون النزعة العاطفية الإنسانية المتأججة لديه، ولا تعتقدون أنه يعرف فقط: «وقفة الانتباه»، و«وقف وقفة الاستراحة»، و«الدوران ناحية اليمين»، بل يعرف أيضا الزحف إلى الأمام وإطلاق الرصاص من البندقية. إنه قائد الفصيل الذي يعرف العزف على الكمان (الأكرديون)، ويجيد عزف المقطوعة الموسيقية «حكاية العاشقين ليانغ وجو». حسنا، وهناك أيضا الموجه السياسي في الجيش.

أعدنا وجبة طعام كاملة. ولكن باي دا شنغ غارقة حتى أذنيها في استعادة الذكريات الجميلة للتدريب العسكري. ولم تر الطعام أمام عينيها، ولم ترمثانة الخنزير المحشوة التي اشتريتها خصيصا من أجلها، كما لم تر خالتها ولا زوج خالتها، وكذلك لم تر زوج أختها الكبرى وانغ يونغ، ولم تربتي الجديد الذي يبت في النفوس الفرح والارتياح. إنها لا ترى شيئا عدا التدريب العسكري، وقائد الفصيل، والموجه السياسي في الجيش. وفي تلك اللحظة، يبدو أن جسمها في مكان ما، وليس مهما بالنسبة إليها مع من تجلس، وحتى لو أخذتها ورمتها في الشارع، فإنها في غاية الرضا عن النفس ما دام من الممكن السماح لها بأن تتحدث عن تدريبها العسكري. وعندما غشيت باي دا شنغ الحمام للاستحمام بعد تجهيز الماء، قمت بإدخال منشفة الحمام إليها، ومن يدري أن هذه المنشفة تجعلها تحبس نفسها في الحمام وتنخرط في البكاء. وسألتها من خلال الباب

الذي يفصل بيننا ماذا دهاك؟ ماذا أصابك؟ ولكن لم أتلّق ردا منها. وبعد فترة وجيزة، خرجت من الحمام ووجهها أحمر ومنتفخة الأوداج، وتتدفق الدموع من مآقيها، وقالت لي إنها الآن لا تتحمل رؤية الألوان الخضراء، وأي لون أخضر يمكن أن يجعلها تتذكر الجيش، وتتذكر جيش التحرير. ولم تكمل كلامها ودست وجهها في المنشفة الخضراء وراحت تبكي، كأنما المنشفة هي الزي العسكري لقائد فصيلهن.

إن اشتياق باي دا شنغ إلى ثلة هؤلاء العسكريين والذي لم تكبح جماحه يجعل المرء يشعر بالضجر، كما جعل ملامحها تبدو مشوشة مضطربة ولا تدري الأمور حولها على وجه الخصوص. ولا أحب أن أسمع قصة تدريبها العسكري مرة أخرى، كما انتابني القلق جراء أن زوجي وانغ يونغ لا يحب ابنة خالتي الصغرى. وفي صباح اليوم التالي، وبعد تناول الإفطار اقترحت أن أصطحب باي دا شنغ ونتجول في الشوارع، فهي مازالت لم تشاهد معالم المدينة «B». ووافقت باي دا شنغ أن نمشي معا في الشارع، ولكن ما لبثت أن سألتني عن مكتب بريد قريب، وأخبرتني أنها كتبت عدة رسائل أمس لقائد الفصيل. وتريد أولاً أن تذهب إلى مكتب البريد وترسل الخطابات. وأردفت أنها وعدتهم أن تكتب إليهم عندما تعود أدراجها، وأن كلامها يؤخذ على محمل الجد. وقلت: لكن أنت لم تعودي إلى بكين بعد، فقالت: إذا بعثت الخطابات من هنا تصل إليهم في وقت أسرع. آه، إنه منطق وحجة باي دا شنغ. ومن حسن الطالع، وبعد فترة قصيرة، شهدت حارة «فوما» سلسلة من التغيرات، ولكن حنينها واشتياقها إلى أهلها الأعزاء

في جيش التحرير يستمر إلى أي سنة، وإلى أي شهر.
وقبل ذلك، رحلت عن دنيانا جدة الأم، وقبل رحيلها أصابها الشلل لمدة ثلاث سنوات، وكانت تمكث دائما مع أبوي باي دا شنغ، أي أنها تعيش مع خالتي وزوج خالتي. ولكن بسبب استدعائهما من مكان آخر والعودة إلى بكين في مطلع الثمانينيات، ومن ثم مكثت جدة الأم أطول فترة زمنية مع باي دا شنغ. وأقول من ذاكرتي إن هذه الجدة كانت أيضا الأكثر لوما وزجرا لباي دا شنغ. لا سيما بعد أن أصابها الشلل، أصبح توجيه اللوم لباي دا شنغ من مباحج حياتها، ولم يتغير مضمون كلمات تعنيفها طوال عشرين عاما ونيفا، لا أكثر ما سمعته منذ نعومة أظفاري من كلمات ما تعودت أذني على سماعها منذ ذاك من «غبية»، و«شاردة اللب»، وغيرها. وذلك في الوقت الذي كانت فيه باي دا شنغ دائما العاملة الكادحة التي تحتضن جدة الأم من السرير وتنزلها إلى الأرض حتى تتبول وتبرز، ثم تحتضنها مرة أخرى وتعود إلى السرير. وباي دا منغ، الشقيق الصغير لباي دا شنغ، لا يمد يد مساعدة لها، ولكن جدة الأم تميل إليه وتهدي له مصاريف الجيب التي يرسلها الأخوال إليها كل شهر. وباي دا منغ يتكئ على مقدمة سرير جدة الأم التي تسحب النقود من تحت الوسادة وتعطيه إياها. وذات مرة قلت لباي دا شنغ إن العضلة الكبرى في حياة الجدة أنها تتحيز للابن الأصغر، وأفسدته بالتدليل، وأصبح الطفل المدلل الصغير. وبالإضافة إلى ذلك، إذا كان هو الطفل المدلل الصغير، فأنت الأخت الكبيرة المدللة. ويادرتني باي دا شنغ قائلة في التو إنها ترغب في أن تجعل الجدة

تضطلع بحماية باي دا منع لأنه عانى العديد من الأمراض منذ نعومة أظافره. باي دا منع يستحق الشفقة والرحمة! تقول باي دا شنغ والدموع تبلل عينيها، وطلبت مني أن أقلب في ذاكرتي، إنه عندما ولد وفي قماطه أصابه السعال الديكي، وعندما بلغ العامين، سدت حبة بقولية حنجرته واحتبست أنفاسه وكاد يموت، وفي سن الثالثة أجرى عملية الفتاق في الأمعاء الدقيقة، وفي الخامسة بين خريف ذاك العام سقط في البئر الجافة في صحن البيت وشجت رأسه وسال منها الدم، وفي سن السابعة عانى من الالتهاب السحائي، وفي العاشرة اصطدم بزملائه في الدراسة وسقط على السلم أمام مدخل الفصل وسقط القاطع من أسنانه.. وفي الحادية عشرة... وفي الثانية عشرة... لماذا كل تلك المصائب والحوادث المسفة تصيب باي دا منع، ولماذا أنا لم تصبني أية كارثة؟ وعندما أتذكر ما يعتمل داخلي تصيبني نوبة من الألم، والتوجع كاد يقضي عليّ.

والأحداث التي سردتها باي دا شنغ تجعل المرء يشعر بأنها دائما تعاني من الآلام في أعماقها من أجل أن تنعم نفسها بالصحة، كما أنها تشعر دائما بالخجل لأنها ليست مثل شقيقها الأصغر الذي تعرض لكثير من المصائب والعديد من الأمراض. وماذا في جعبتي من كلمات، وإذا مضيت قدما في الحديث مرة أخرى يبدو أنني أذرع الانقسام بين الأخت وأخيها، على الرغم من أنني لا أشعر بالارتياح نحوه.

رحلت عن دنيانا جدة الأم، ويكتها باي دا شنغ حتى كادت أنفاسها تختنق مرات عديدة. وكنت أفكر وأخمن - من البداية

حتى النهاية - علام كل بكائها وعويلها، والجدة طوال حياتها لم تعاملها بحنان، ولكن ما بقي في قلبها أن الجدة طيبة وحنونة. وذات مرة، قالت لي عن جدة الأم - على كل حال - امرأة عجوز محنكة ذاقت مرارة التجارب في الحياة. وفي ذلك الحين، وفي أواخر حقبة السبعينيات، شهدت طاولات دكاكين مستحضرات التجميل زجاجات طلاء الأظافر، واشترت باي دا شنغ زجاجة، وقالت لها الجدة يجب عليك أن تشتري محلول إزالة دهان الأظافر معها، وإلا كيف تتخلصين من هذا الطلاء؟ وأنداك أدركت باي دا شنغ حقيقة كلام الجدة، وأن هذا المحلول له أهمية طلاء الأظافر نفسها. ودلفت إلى الدكان مرة أخرى لشراء محلول إزالة دهان الأظافر، وذكر البائع أنه لم يسمع عن هذا المحلول. وقالت باي دا شنغ لي: آه، إنهن لا يعرفن - وقتئذ - محلول إزالة طلاء الأظافر، ولكن الجدة تعرفه. أنت تعتقدين أنها اجتازت العديد من التجارب بحلوها ومرها؟ وقلت لنفسي أي التجارب والخبرات التي اكتسبتها الجدة، ولكن لم أذكر لها ذلك في نهاية المطاف، ولا أريد تعكير صفوها. وشعرت أنا وحدي بأنه من السهل على المرء أن ينتزع إعجاب باي دا شنغ.

وبعد أن رحلت جدة الأم، وزعت وحدة عمل الخالة، وهي المدرسة الأساسية الإعدادية داخل المدينة، عليها وحدة سكنية تتألف من حجرتين في إطار مشروع الإقامة المستقرة للمعلمين. وتشاورت العائلة وقررت: تقطن الخالة وزوجها وباي دا منغ في المسكن الجديد، بينما تقيم باي دا شنغ في البيت القديم في حارة «فوما»، ومن ذلك اليوم فصاعداً، أصبحت باي دا شنغ

سيدة بيتها، وتستطيع هناك أن تبني نفسها بنفسها، وأن تتزوج وتنجب ذكورا (أو إناثا) وتقيم هناك إلى الأبد. والمنطقة التجارية في غرب مدينة بكين التي تعتبر قطعة من الذهب تستحوذ على إعجاب المرء. وبدأت باي دا شنغ آنذاك قصة حبها الثاني (إذا اعتبرنا أن قصة حبها الأول عندما كانت في العاشرة). وفي ذلك الحين، كانت في الفرقة الرابعة الجامعية، وتعرف الكثرة الكثيرة من زملائها في الدراسة أنها تمتلك مسكنا يضم حجرتين. وفي بعض الأحيان، تدعو بعض زملائها للالتقاء في حارة «قوما»، وأحيانا أهل وأصدقاء زملائها القادمين في مكان آخر يؤجرون مسكنا في هذه الحارة أيضا. وأم الطالب قوا هونغ، الذي يدرس معها في الفصل نفسه، جاءت إلى بكين للعلاج، وأقامت في بيت باي دا شنغ لمدة نصف شهر. وفيما بعد، تجاذب قوا هونغ أحاديث الهوى مع باي دا شنغ. وعائلة قوا هونغ تقيم في مدينة داليان. وقد رأيت قوا هونغ، ويمكن وصفه بكلمات باي دا شنغ أن: «ملامحه تشبه النجم السينمائي تشين داو منغ بصفة خاصة أو أخاه الصغير». وقوا هونغ مقتضب في حديثه، وشديد الذكاء، وأشعر بأنه لا يحب باي دا شنغ اعتمادا على الحدس. ولكن كيف أستطيع أن أقنع باي دا شنغ بذلك، وهي تشبه الشيطان في تلك الفترة. وتستطيع أن تتذكر حماسها المفرطة في الحنين إلى التدريب العسكري، ولذا تستطيع أن تستغل قوة الانفجار التي تكمن في مشاعرها والتي تخوض بها مثل تلك التجربة في الحب.

(٤)

كانت باي دا شنغ تسألني دائما آنذاك: إذا تزوجت من رجل، فهل أنت تختارين الرجل الذي يجمع بينكما الحب المتبادل، أم تختارين الرجل الذي يحبك أكثر مما تحبينه، أم تختارين الرجل الذي تحبينه أكثر مما يحبك؟ طبعاً، أنت بالتأكيد تختارين الحب المتبادل مع الرجل، وأنت وزوجك وانغ يونغ يجمعكما الحب المتبادل. وأجابت باي دا شنغ بالإجابة عني. وسألتها عن ماهية اختيارها، وقالت ربما يجب أن أختار الرجل الذي حبي له يفوق حبه بصورة أكثر.. وأكثر.. ولم تكمل كلامها. ولكن من هنا عرفت أنه منذ بداية قصة حبها الثاني وضعت لنفسها معياراً من الدرجات الدنيا، إنه معيار نسيان الذات، والتضحية بالغالي من أجل الآخرين، وجعل النفس تشعر بالحزن بعض الشيء. ويبدو أنها - منذ زمن بعيد - تتحلى بنوع من الشعور المسبق مفاده أن مشاعر الحب التي يكنها الرجال لها في هذه الدنيا لا تنافس إلى الأبد جنون الهوى لديها من تيممها بالرجال. والمشكلة أنني مازلت أفكر وأسأل نفسي بقسوة شديدة، أيوجد في العالم رجل يكن مشاعر حب حقيقية نحوها؟ إن الصداقة التي تربط بين قوا هونغ وباي دا شنغ هي رغبتهما في

تأكيد علاقة الحب بينهما، حتى يستطيع قوا هونغ المكوث في بكين بعد التخرج. وأدركت هذه الحقيقة منذ زمن بعيد، ولفت انتباهها وأخبرتها أن قوا هونغ يفتقر إلى بيت في بكين، فقالت عندما أتزوجه يصبح له بيت.

وربما قوا هونغ يريد - أصلا - أن يتزوج باي دا شنغ، فقد عاشا معا. وأصبح الاهتمام والقيام على خدمة قوا هونغ بمنزلة الغبطة الكبرى بالنسبة إليها، حيث تشتري له السجائر، وتغسل جواربه، وتجهز له الطعام، وتدعو كوكبة كبيرة من زملاء الدراسة للاحتفال بعيد ميلاده في حارة «فوما»، وذلك حتى يعرف الجميع أن حبها يتسم بالوعي ويسير على درب الزواج، كما تصطحب أفراد أسرة قوا هونغ عندما يزورون بكين، وتقدم لهم الأكل والإقامة، وتشتري لهم الأشياء من نقودها. وفي البداية، كانت تطلب بصفقة النقود من الأسرة. وذات مرة تجرأت وأجبرت خالتها وزوجها على أن يبيعا مروحة كهربائية قديمة من أجل أن تشتري لابن شقيق قوا هونغ «كلبا». إنها تتحمل العناء الشديد حقاً! ولكن عندما كان على أعتاب التخرج، تعرف فجأة إلى طالبة يابانية تدرس في المدرسة. ومنذ ذلك الحين، لم يعد يغشى حارة «فوما»، حيث يعتزم السفر إلى اليابان مع هذه الطالبة اليابانية، وقد أفشى هذا السر أحد أصدقائه. إنه رجل اعتمل في ذهنه فكرة أن تعوله امرأة. وما دام يستطيع السفر إلى اليابان، فلماذا مازال يمكث في بكين؟ ولا توجد ثمة ضرورة أن يبقى في بكين. إذن، لا حاجة إطلاقاً إلى أن يتزوج باي دا شنغ.

وحتى يومنا هذا، لاتزال صورة باي دا شنغ وهي تبكي بحرقه أمامي ماثلة في ذهني، حيث تورمت عيناها، وشعرها منثور على وجهها، وتجلس الأربعة فوق سريرها الكبير، وتصر على أسنانها (اكتشفت حالا أنها تعرف أن تصر على أسنانها ولم يكن ذلك في الحسبان). وتقول إنها ترغب فعلا في الانتقام من قوا هونغ وترغب أيضا في ألا تتركه يبقى في بكين، وتجعله يعود إلى بيته في شمال شرقي الصين! ثم رسمت طريقة وخطة الانتقام، وفي رأيي أنها مناورة صبيانية مضحكة تعوزها القوة. وتجشأ عندما يتطرق حديثها إلى المواضيع المؤثرة، إنه تجشؤ رنان، وحزين أيضا، مثل من عركته الحياة. وعلى كل حال، عندما كنت أشجعها أن تتخلص من هذا الجو الكئيب أيا كانت الأسباب، فإنها تلتزم الصمت. وتطرح نفسها على السرير بقوة، وتأخذ لحافا، ثم تغط في سبات عميق. ورأيت أمامي «جبل القطن» وجال بخاطري أن لحافا من القطن يكون أحيانا مانعا للكوارث حيث يستطيع مقاومة البرد الذي تتعرض له، ويتستر على انتقامها، ويهدئ من روعها، ويخفي آلامها وأحزانها. تغطي باي دا شنغ باللحاف وتنخرط في النوم طوال يوم كامل، وبعد أن استيقظت من نومها لم تتذكر رغبتها في الانتقام من قوا هونغ مرة أخرى. وعندما أقابلها وألح في السؤال عليها. تقول: آه، إذا كنت قادرة على مجابهة الكوارث والأحداث المؤسفة التي شهدتها في الماضي. فهل يجزؤ قوا هونغ أن يتصرف بحماقة نحوها؟ لا يجزؤ! إذا قلنا ذلك، يبدو أن تصرفاته تجاه باي دا شنغ هكذا واجبة ومبررة.

وتلقت باي دا شنغ توزيع العمل بعد التخرج في خضم التخلص من الآلام والمعاناة التي سببها قوا هونغ، وبدأت مشهدا آخر في حياتها في فندق كايلون. وهي تعمل بنشاط وجد، وتعامل الناس بإخلاص، ولم يطرأ عليها تغير عدا زيادة وزنها كيلو جرامين أثناء فترة تدريبها في المطعم الغربي (يعد التدريب في المطعم مقررا إلزاميا لكل العاملين في الفندق). وما زالت كما كانت في عهد الدراسة، ولم تفسدها سخرية المجاملات الزائفة وجو الفتور وعدم المبالاة في الفندق. وفي بعض الأحيان، يتسابق ويتزاحم عليها زملاء العمل، فهي إما لا تسمع إلى أصواتهم، وإما تضحك بصوت عال ولا تكثر بهم. وقد فازت بصديقة يحبها الجميع، وهي العاملة المناوبة في حجرة تبديل الملابس التي امتدحتها قائلة: فتيات الفندق كلهن حسناوات، وأنت أيضا أشعر بالارتياح عندما أنظر إليك. ونتبادل التحية جميعا ويسألن عن حالتي وصحتي، مما يجعل القلب يشعر بالدفء والاطمئنان. ولا نخشى أضحوكتك، حتى يومنا هذا تشعر زوجة ابني بالتعب الشديد عندما تناديني بلقب الأم، آه، يا باي دا شنغ، ماذا دهاك اليوم تلفين المنديل الحريري أسفل ياقة القميص، أليس منديل الحريري يجب أن يربط حول العنق؟.. عاملة حجرة تبديل الملابس لا تعتبر باي دا شنغ غريبة عن الفندق، وتصطحبها بانسجام وتفرغ كل ما في جعبتها من كلام.

وبعد فترة من الوقت، بدأت باي دا شنغ تتجاذب أحاديث الهوى مرة أخرى. وحبیبها - في هذه المرة - يدعى قوان بنغ يو، يعمل

في قسم غرف الضيوف في فندق كايلون، وأصغر من باي دا شنغ بعام، وقامته مثل باي دا شنغ تقريبا. وتعرفا أثناء التدريب في حفلة عيد الميلاد، فصوت قوان بنغ يورخيم وجميل عندما يصدح بأغنية «نهر اليانجتسي»، وبرنامج باي دا شنغ هو الأغنية الشعبية «العودة إلى بيت الأم». وهذه الأغنية تصدح بها باي دا شنغ باقتدار عندما كانت تدرس في الجامعة. كما تتمتع بميزة خاصة وهي عدم الرهبة من منصة الغناء، ويرتبط ذلك بصلة قوية بعملها رئيسة قسم الإعلام في اتحاد الطلاب. ولكن في عملية التدريب والتجربة على الغناء تظهر فقط بعض المساوئ، على سبيل المثال، عندما تغني وتصل إلى المقطع الغنائي: «دجاجة في اليد اليسرى، والبطّة في اليد اليمنى، واحتضن ضفدعا سميّا أيضا»، يجب عليها أن تمد يدها اليسرى أولا، ثم يدها اليمنى، ولكنها تمد دائما يدها اليمنى أولا، ثم يدها اليسرى بعد ذلك. وعلى الرغم من أن ذلك ليس نقيصة كبيرة، ولكن تجعل المرء يشعر بالضيق، وفي ذلك الحين، يندفع إليها بهدوء قوان نيغ يو الجالس أسفل المنصة ويلوح بيده، وينبهاها قائلا: «اليد اليسرى أولا، اليد اليسرى أولا». ترى باي دا شنغ إشارته، كما تسمع تنبيهه، وتصرفاته القليلة يحرك في قلبها مشاعر يعجز القلم عن وصفها، إنها مشاعر الاطمئنان وراحة البال مثل من يتمتع بالقوة، ويستند إلى الجبل، وتنصاع لإشارة قوان بنغ يو، وتمد «يدها اليسرى أولا». وبعد ذلك، وعندما يحين وقت التدريب على الغناء، وقبل أن تصل إلى المقطع الغنائي: «دجاجة في اليد اليسرى» تحول نظراتها مسبقا إلى قوان بنغ

يو الجالس أسفل المنصة، إنها نظرات تحمل في طياتها بعض الإيماءات، كما تتسم ببعض الدلال والنعومة. إنها تومئ إلى قوان بنغ يو ولسان حالها يردد: إياك أن تنسى الإشارة، وتقول: ارتكب الخطأ حالا، لا تنسى بالتأكيد، نبهني من فضلك. وعند لحظة مد اليد، فإنها - فعلا - تستطيع بسلاسة أن تمد «اليد اليسرى أولا»، ولكنها تتظاهر بالتردد، كما أنها تتصنع بأنها لا تعرف كيفية مد يدها. وفي الحقيقة، يشعر قوان بنغ يو بالقلق، ويقفز نحوها ويمد يدها اليسرى. وتحب باي دا شنغ أن تراه في حالة القلق، وذلك القلق ليس من أجل الآخرين، بل إنه قلق من أجل باي دا شنغ على وجه الخصوص. وكادت باي دا شنغ تطير فرحا، وأن فن «المغازلة» لديها يمكن أن نقول إنه وصل إلى مدى قصير، ويتوقف عند هذا الحد، ولم تعد في جعبتها حركات خداعية أخرى.

ويختلف قوان بنغ يو عن قوا هونغ، فهو رجل يحب بالضرورة الاستقرار والمعيشة الطيبة، ويهتم بأحداث الموضة في الأزياء الحريمي، وإجادة المرأة في حبك الكنزة، وقدرتها على العزف على البيانو، وأيضا ترتيب السرير، وعندما ذهب مع باي دا شنغ إلى حارة «فوما» للمرة الأولى، استعرض أمامها مهارته الفنية المتخصصة في قسم غرف الضيوف من ترتيب السرير وجعله في حالته الفندقية المميزة من «ثني أحد أطراف اللحاف». ويبدو أنه انطلاقا من عدم كراهيته لوظيفته العادية، تأصل داخله نوع من الهواية الوظيفية حيث أينما ير سريرا يُرد ترتيبه و«تجهيزه» على النحو المذكور سابقا. ويوصي باي دا شنغ أن تحضر له طقم

من ملاءة السرير والمفارش، وتقف عند أقدام السرير وتمسك
يداه طرفي الملاءة ويفردها، ويسوي بيده تموجات الملاءة التي
تشبه الأمواج بقوة، وفي طرفة عين يهدأ ويسترخي على السرير
مستقيماً. ثم ينفذ الوسادة بدلاً من باي دا شنغ ويطلب منها
أن تجلس على حافة السرير حتى يجعلها تتذوق مهارته وحلاوة
عمله. وفي هذه اللحظة، الاثنان: قوان بنغ يو، وباي دا شنغ
فوق المفارش ولا يدري أحد ماذا في مقدورهما فعلة؟ ويجعل
ذلك المرء يشعر بأن الذي يرتب السرير يبتعد عنه دائماً مثل
بناء الحجرة يناى بعيداً عنها. وأدركت باي دا شنغ من ملامحه
السذاجة والهدوء بعد العمل الشاق، ولا توجد رغبة.

واستمرت اللقاءات بينهما. والفندق يصفى مجموعة كبيرة
من الأثاث ويبيعه بأسعار زهيدة للعاملين، وثلاثة أطقم من
الأرائك تباع فقط بمائة وعشرين يواناً. وتبتاع باي دا شنغ
أشياء ليست قليلة من الأريكة، والسجاد، والفرن الكهربائي
الميكرويف إلى المصباح العمودي، وخزانة الشراب الصغيرة،
والمكتب، ويساعدها قوان بنغ يو في ترتيب وتزيين البيت من
جديد. وتذكرت باي دا شنغ أن قوان بنغ يو يحب العزف على
البيانو وتصر على أسنانها وتنفق خمسمائة يوان وتشتري
بيانو الفندق القديم (بالإضافة إلى كرسي البيانو). وباي دا
شنغ تقترض النقود من أبويها، فقد انقضى زمن بيع المروحة
الكهربائية القديمة. وهي ليست غنية، ولكن لا تشعر بأنها في
حاجة إلى نقود. وأقامت حفلة عيد الميلاد لقوان بنغ يو في
الحجرة الجديدة التي تم ترتيبها. وهذه المرة أصبحت أكثر

حذرا بشكل أكبر، ولم توجه الدعوة لحضور حفلة عيد الميلاد إلى عدد كبير كما فعلت في عيد ميلاد قوا هونغ. بل هذه المرة لم تدع أحدا. وشارك في الحفلة اثنان فقط هما: باي دا شنغ، وقوان بنغ يو. وطلبت من المطعم الغربي في الفندق الكعكة الإسفنجية (كاتو) التي يطلق عليها «الغابة السوداء». كما اشترت زجاجة شراب وسعرها معتدل. وفي مساء ذلك اليوم، يأكلان الكاتو، ويحتسيان الشراب. كما عزف قوان بنغ يو على البيانو برهة. وأثناء عزفه، وقفت باي دا شنغ على مقربة منه وتنظر إلى جانبه. وهي قريبة جدا منه، وتكاد أذنه تلمس صدر سترتها. وتتورد أذنها مثل الأرنب. وأخبرتني باي دا شنغ - فيما بعد - أنها كانت ترغب كثيرا في عض أذنه آنذاك. يواصل قوان بنغ يو عزفه على البيانو، ولكنه لا يدري ما يعزف بالضبط، حيث يوجد بجواره كتلة من الأنفاس الحارة تريك تفكيره، ولا يعرف هل ينظر إلى مفاتيح البيانو أم يجب عليه أن يستدير رأسه نحو تلك الأنفاس الملهبة، ثم يلتفت إلى باي دا شنغ. وأثناء التفاته لا يدري ما أصابه وتستند رأسه وأذنه المتوردة على صدر باي دا شنغ برفق. وكان ذلك وضعاً جعلها لا تتخذ الاحتراس، وربما ترغب في أن تضم رأسه إليها. ولكن ارتخت ركبتيها وجعلت جسمها ينزلق إلى أسفل وتركع على الأرض. وبمقارنة جسمها الجاثم على الأرض، وقوان بنغ يو الجالس على كرسي البيانو، تبدو ضخمة وسمينة. وعلى كل حال، هذا المنظر يجعل قامتها تبدو أقصر منه. وترفع رأسها نحوه ولسان حالها يظهر القبول. ويحني جسمه نحوها ويقبلها. وتضم بيدها رقبتة غير الغليظة

إليها. ولكنه يبدو مرتبكا إلى حد ما. ومن المحتمل جدا أنه شعر بالندم توا جراء التفاته المهلك نحوها. كما يبدو أنه كان غير مشغول حتى قرر هذه الالتفاتة. كما تظهر هذه الالتفاتة أنها جعلته يدرك أن باي دا شنغ التي أمام عينه ضخمة هكذا فعلا، ضخمة إلى درجة أنه لا يستطيع السيطرة عليها. أو ربما شعر بالضائلة والنقص بسبب قامته وشعوره بالدناءة بسبب مؤهله الدراسي، أليس كذلك؟ وباي دا شنغ حاصلة على مؤهل عال، فقد تخرجت في معهد السياحة. وربما هذه الأسباب ليست كلها جعلته - في نهاية المطاف - لا يقرباً أنه يحب باي دا شنغ. وأخيراً، ينزع نفسه من بين ذراعي باي دا شنغ ويجلس بجوار الطاولة، وتعود باي دا شنغ إلى مقعدها بجوار الطاولة أيضاً، وتبرز ملامحها مظاهر الإعياء الشديد.

تقول باي دا شنغ على غرة: إذا عشنا معا، أقوم بتغيير خزان فحم الغاز بالتأكيد.

ويقول قوان بنغ يو: إذا كتب لنا الحياة معا، أقوم بتغيير اللبنة بكل تأكيد.

وتقول: إذا عشنا معا، لا أجعلك تضطلع بأي عمل.

ويقول: أنت رقيقة الحاشية فعلا، وأدرك ذلك منذ زمن بعيد. ويعد كلامه حقيقة، ويدرك أنه ليس كل رجل يستطيع ملاقاتة مثل طيبة القلب. ويقبلها مرة أخرى لأنه اكتشف أنها تتمتع بقلب طيب حنون. ويعد ذلك، يودع كل منهما الآخر بهدوء وسرور.

وما زال حديثهما لم يتناول زواجهما، ولكن أدرك كل منهما ما

يجول في ذهن الآخر، وزملاء باي دا شنغ في العمل يسألونها، فتضحك ولا تجيب. وفي نهاية المطاف، اكتسبت باي دا شنغ خبرة قليلة، وتصبر على مضض وتكيف نفسها على السعادة كما تراها. وإذا لم تحضر إلى بكين (شياوفين) ابنة خالنا، أظن أنهما يستطيعان الزواج. ولكنك شياوفين جاءت إلى بكين. وشياوفين هي ابنة خالنا وتقيم في مدينة تايوان، ولم تجتز امتحان الالتحاق بالجامعة لمدة ثلاث سنوات على التوالي، وقدحت زناد ذهنها عن فكرة السفر إلى بكين لتتدرس وتشق طريقها في الحياة. وكان حلمها المثالي أن تكون مصممة أزياء مشهورة، ومن ثم اختارت مدرسة في بكين لا تطلب شهادات، وغير مسؤولة عن المأكل والمسكن، كما لا تتحمل مسؤولية التوزيع للحصول على عمل. وأنفقت المال والتحقت بهذه المدرسة، وجاءت إلى حارة «فوما»، وتريد الإقامة مع باي دا شنغ، وشياوفين تؤازر الحق وجريئة، ولا تهاب دون أن تترك فرصة للتبرير.

(٥)

لم تزر شياو فين بكين. ولكن لا تهاب أن تغشى أي مكان، وتنشأ بينها وبين الآخرين ألفة عند التعامل والمعاشرة. وهي - في المقام الأول - لا تشعر بالخجل البتة وأصبحت حارة «فوما» مثل بيتها تماما، حيث فتحت خزانة ملابس باي دا شنغ، وجرجرت العمود الذي تعلق عليه باي ملابسها ويصدر صوتا وتحركه جانبا، ثم تعلق مجموعة كبيرة من «الأزياء» التي جلبتها معها. كما ألقت نظرة فاحصة إلى المكتب، ودفعت في إحدى زوايا الطاولة عدة إطارات تحمل صور باي دا شنغ كانت وضعتها فوق المكتب، ثم تضع بضعة إطارات مرصعة باليشم وتحمل صورتها في زاوية أخرى مختلفة، ومن بينها صورة ملونة بحجم أربعة وعشرين تسون (تسون = ثلث متر) على غرار طريقة فن التصوير في بناية بنغ، علقتها قبالة الباب وجها لوجه حتى تجعل الجميع بمجرد أن يدخل بيت باي دا شنغ ينظر أولا إلى شياو فين في ظلال الأضواء الخافتة. وأخيرا، فكرت في مشكلة السرير، وترى أن الحجرة يوجد بها سرير كبير فقط، وتخبر باي دا شنغ أن نومها يتسم بنقيصتين، حيث تحب النوم على سرير كبير، والسرير الضيق يجعلها تسقط على الأرض. وطلبت من

باي دا شنغ أن تعطيهما السرير الكبير، وتبحث عن سرير طواء لنفسها. وباي دا شنغ ليس عندها سرير طواء فتضطر إلى شرائه من الدكان. وتبقى مشكلة الأكل، وقامت شياوفين بترتيب ذلك على النحو التالي: حلت بنفسها مشكلة طعام الإفطار، والعشاء يقوم بإعداده من يعود إلى البيت أولاً (ترجع شياوفين إلى البيت دائماً متأخرة عن باي دا شنغ)، أما الغداء فقد قالت شياوفين إنها تتناول طعام الغداء مع باي دا شنغ في فندق كايلون، وقالت إنها تعرف أن باي دا شنغ وأترابها يتناولون الغداء مجاناً. وتشعر باي دا شنغ بالحرج إزاء ذلك، على الرغم من أن شياوفين ليست عاملة في الفندق، إنها مشكلة مؤرقة، وتقوم شياوفين بإخبار باي دا شنغ وتقول نحن لا نريد وجبتين، نأكل معا وجبة الطعام المخصصة لك وستكفي، ألا تشعرين بأنه يجب عليك إنقاص وزنك، وعدم التخصيس يجعلني أفقد الإلهام عندما أقوم بتصميم ملابسك. تشعر باي دا شنغ بأنها لا تعتبر سميكة، ولكن لا تقول إن قوامها رشيق، وتذكر في هذه اللحظة قوان بنغ يو الأكثر نحافة منها، وتقدم تنازلات لها. والمرأة تقوم بالتخصيس حتى تسعد نفسها. وباي دا شنغ تريد التخصيس، وأصبح من المؤكد أن شياوفين تتناول الغداء في فندق كايلون مع باي دا شنغ. وفي الواقع، أنها تأكل أكثر من نصف الوجبة، وتشعر باي دا شنغ بالجوع قبل الانصراف من العمل بعد الظهر، وتأكل البسكويت في المكتب.

تناول الغداء في فندق كايلون وسع آفاق رؤية شياوفين، حيث تعرفت إلى جميع زملاء باي دا شنغ في العمل، وسجلت أرقام

هو اتفهم وأرقام جهاز تبليغ المكالمات الهاتفية (BP) وفيما بعد، أصبحت مألوفة لديهم أكثر من باي دا شنغ التي تحملها على ظهرها وتذهب إلى صالة التجميل بالفندق من أجل قص شعرها وتجميل وجهها (طبعاً مجاناً). وتطلب من الأصدقاء في قسم غرف الضيوف الغسيل الجاف لمعطفها وسترتها الصوفية. وزميل باي دافنغ في قسم المبيعات لديه سيارة ركاب ماركـة «فوكانغ» (السعادة والصحة). ولم يكن في الحسبان أن يقود سيارته ويدلف صباح كل يوم إلى حارة «فوما» ويستقبل شياوفين ويرسلها إلى مدرسة الأزياء ويقول إن الطريق أقصر ومباشر. وعلى هذا النحو، وفرت شياوفين مصاريف ركوب حافلة متوسطة الحجم. وتمتعت بكل هذه التسهيلات وهي تشعر بالارتياح والطمأنينة. وطبعاً، لا تغفل الشكر والامتنان إلى الذين منحوها تلك التسهيلات. واعتادت أن تربت على أفخاذهم تعبيراً عن شكرها، ثم تقول: «أنت ظريف حقاً!» ويخفق قلب الرجال ويرتعدون جراء هذا السلوك. كما أن الجملة التي تتفوه بها ذات المغزى الكامن: «أنه ظريف حقاً!» جعلهم يشعرون بالغبطة عند استعادة الذكريات، ولكن لا يتجاسرون إطلاقاً على مداعبتها بالطريقة نفسها. إن الربت على أفخاذ الرجال سواء أثار عواطفهم أو لا، يعد سلوكاً غير مهذب. ولكن ما تبديه من ملامح لا يمكن ببساطة حمله على أنها يعوزها التهذيب، إن قامت الرشيقة الأنيقة التي تبلغ متراً وخمسة وخمسين سنتيمتراً، ورأسها الصغير، وشعرها المقصوص على موضة «شانغ هان» (الموضة المحمومة)، ويداها الصغيرتان اللتان تتسمان بالنعومة والقوة، كل ذلك يمنح المرء

شعورا يتأرجح بين المرأة والطفل، من الخشونة والتدليل، والنوايا العميقة وعدم الدراية بالشؤون الحياتية تندفع إلى حارة «فوما» مثل ريح دوامية ويحذر شديد، لقد قلبت حياة باي دا شنغ رأسا على عقب، وخطفت من أحضانها حبيبها قوان بنغ يو في نهاية المطاف.

وحدث ذلك في ذات يوم بعد الظهر، حيث قابلت باي دا شنغ زيون الشركة الأمريكية فورد في فندق القوميات. وبعد ذلك، لم ترجع إلى عملها وعادت إلى حارة «فوما» القريبة من الفندق يومذاك. وكان هذا اللقاء سهلا ومريحا. ووافق الزيون الأمريكي، وهو رجل طاعن في السن ووجهه أحمر، على إبرام عقد مع فندق كايلون يستأجر بمقتضاه غرفة لمدة عام في الفندق تكون المكتب التمثيلي للشركة. ويدل ذلك على أن باي دا شنغ تحصل على اثنين في الألف من قيمة الإيجار. وارتأت في ذلك اليوم أنه لا داعي أن ترجع إلى عملها، ويجب فعلا أن تعود إلى البيت وتحتفل بهذا العمل المبهج. ترجع أدراجها وتفتح الباب، وتري شياو فين وقوان بنغ يو ممددين فوق سريرها الكبير.

لا يمكن أن نصف شياو فين وقوان بنغ يو انطلاقا من الحياة البوهيمية. وإذا كانت حياة المجون فعلا، فأوضاعهما تتحلّى بالاحتمالات الأخرى، وتكمن المشكلة في أن شياو فين لا ترغب في اللهو والمجون مع قوان بنغ يو، كما يشعر قوان بنغ يو بأنه يجب أن يتزوج من حبيبته الأصلية شياو فين، والاحتمال البديهي أن قوان بنغ يو زوج باي دا شنغ أصبح زوج ابنة خال باي دا شنغ في أقل من شهرين.

تقلب باي دا شنغ الأمر في ذهنها، ولا تبغض قوان بنغ يو على غرار مقتها لقوا هونغ على هذا النحو. وما يمزق نياط قلبها ويحز في نفسها أن علاقاتها مع قوان بنغ يو استمرت عاما ونيفا، ولم يتطرق تفكيرهما إلى المضاجعة في الفراش، إن قوان بنغ يو التقى شياو فين مرات قليلة، ثم يجمعهما الفراش. إنه سريرها، آه، سرير باي دا شنغ.

تغادر شياو فين حارة «فوما»، ولم تنبس بكلمة اعتذار لباي دا شنغ، تركت لها فقط قميصا مستديرا من تصميمها، ولكن نسيت أن تدرز عرى القميص. وعلى العكس، شعر قوان بنغ يو بالذنب نحو باي دا شنغ، وذات يوم يطلب مفتاح البيت في تلك الحارة من شياو فين - ليس هناك متسع من الوقت - لم تحصل باي دا شنغ على المفتاح بعد - وينتهاز فرصة وجود باي دا شنغ في العمل، ويصطحب بعض الأفراد لينقلوا سريرها القديم، ويشتري لها سريرا مزدوجا جديدا، فضلا عن ملءة السرير، والوسادة، وغيرهما من مفارش السرير. ويرتب لها السرير بضمير يصل إلى الحرص الشديد بنسبة مائة في المائة ويفوق ترتيبه لسرير الزوجية مع شياو فين بشكل أكبر. وجعل ملءة السرير لا تظهر ثمة ثنيات ولا ذرة غبار في وزرة السرير. ويواصل تجهيز السرير من أجلها كما يفعل في الفندق يوميا، ويرتب الوسادة، ويرفع - حسب الأصول الفندقية وعلى امتداد جانب الوسادة - أحد أطراف البطانية الخفيفة التي تغطي ملءة السرير، كما يضع في الطرف المثني للحاف زهرة القرنفل الصيني العطري ذات اللون الأصفر الفاتح. كأنما يريد أن يجعل

باي دا شنغ تنسى ما حدث فوق هذا الفراش ويعكر صفو المزاج، كما يبدو أنه يدعو لها بالخير وتبدأ أياما جديدة.

تنصرف باي دا شنغ من العمل وتعود إلى البيت وترى السرير الجديد وكل مفارشه، ويجسد ذلك مهارة وفن قوان بنغ يو ومشاعره الودية، كما أنه أسلوب فريد للاعتذار من جانب ذلك الرجل. تجلس باي دا شنغ فوق السرير الطواء ويسرح نظرها في الأفق ولسان حالها يقول إن السرير الجديد كتلة من الآلام والأحزان، لأنها في الواقع تشتاق إلى ذلك السرير القديم الذي طلب قوان بنغ يو من الآخرين أن ينقلوه، إنه السرير الذي سبب لها جرحا غائرا في نفسها. وتمنت لو تستطيع استعادة السرير القديم، حتى لو كانت وحيدة كل ليلة. أما الجزء الآخر الذي كانت شياو فين تنام فيه فيمكن أن تغطيه ولا تفكر فيها. والحزن الذي كان تشعر به في قلبها وجسدها فوق السرير القديم، هو بالتأكيد الحزن المؤلم المتجذر في أعماقها، إنه الحزن على الأيام التي قضتها مع قوان بنغ يو. والسرير الجديد المائل أمام عينيها غير ذي قيمة، إنه عبارة عن كومة من الخشب تفتقر إلى الماضي. والسرير الجديد الذي اشتراه قوان بنغ يو جلب الكثير والكثير من الكآبة والحزن لحارة «فوما»، وعلى سبيل المثال، هذا الرجل الذي اختمرت في ذهنه منذ أمد بعيد فكرة أن ينأى بعيدا عن الفتاة التي تحبه. وقبل الوداع، يصمم - من أجلها - أن يمسح الطاولة، ويمسح الباركيه، ويعدل إطار الصورة على الحائط حتى يصبح مستقيما، ويصلح صنبور المياه. ويعد ذلك نوعا من الاهتمام الشديد الأكثر قوة في هذا العالم. والفتاة إما تصبح

يائسة في خضم مثل هذا الاهتمام الشديد، وإما تدرك الحقيقة فجأة انطلاقاً من ذلك الاهتمام.

ويبدو أن ابنة خالتي الصغرى باي دا شنغ كئيبة قليلاً، ولكنها لا تتحدث عن إدراكها مثل هذه الحقيقة على غرة، واكتفت بالأنا على السرير الجديد فترة طويلة. وكنت أول من نام عليه. وفي تلك المرة، حضرت إلى بكين للمشاركة في اجتماع مناقشة كتب الشباب والأطفال وقضيت ليلة في حارة «فوما». ومددت جسمي على السرير الجديد لباي دا شنغ التي طرحت جسمها على السرير الطواء، ووجهها صوب سقف الحجرة وسردت قصة شياو فين وقوان بنغ يو. وقالت إن شياو فين لم تذهب إلى مدرسة الأزياء بعد زواجها من قوان بنغ يو، وليس لديهما بيت وأقاما مع أبوي قوان بنغ يو. وأسرة قوان تقطن في وحدة سكنية بالية في أحد المباني، وفتحت شياو فين دكاناً للملابس تطل أبوابه على الشارع، وتجاريتها رابحة جداً. وأردفت أنها لم تشارك في حفلة زواجهما، وأقسمت - يومذاك - بعد انصرافها من العمل والعودة إلى بيتها يومياً إنها لا تعرفهما أي اهتمام طوال حياتها. وأبدى باي دا منغ تأييده لها ولا تربطه بهما علاقة. وعلى كل حال، عندما اقترب موعد زفافهما أرسلت لهما هدية عبارة عن خزانة تعقيم السلطانيات قام المكلف بالغرف للضيوف في الفندق بتسليمها لقوان بنغ يو. وأضافت باي دا شنغ أن قوان أرسل إليها كيس حلويات السعادة تسلمته من هذا المكلف أيضاً. وقالت خمني أين وضعت هذا الكيس، فقلت بالتأكيد لم تأكله. وتشير إلى سقف الحجرة وتخبرني أنها وقفت في الفناء ورمته فوق سقف الحجرة.

وغمضت عيني، وأفكر في سقف الحجرة المكسو بالقرميد الرمادي وفوقه العشب الجاف، فوجدت السقف مازال على حاله، ولكن القطة الصفراء نيونيو، والقط الذكر الأصفر شياو شيونغ قد اختفيا منذ زمن مبكر، وإلا كانت حلويات السعادة جلبت لهما فرصة عظيمة بالتأكد. وأخيرا، تلقي باي دا شنغ باللائمة على نفسها، وتقول غلطتي أنا، حذري ضئيل، وحدث ذلك لأنني لست حذرة... فقلت: وما علاقة ذلك إذا كنت حذرة أو لا؟ فقالت: على كل حال، ما الذي له علاقة بذلك؟

لم أقدم إجابة عن سؤالها، ثم دعوتها إلى مشاهدة فيلم سينمائي. وفي تلك المرة، شاهدنا الفيلم الأمريكي «عالم الجمال المطلق» الذي لم يعرض أمام الجمهور، وكنت حصلت على تذاكر السينما من اجتماع المناقشة. وعند مشاهدة الفيلم انخرطنا في البكاء، وعلى الرغم من كبح جماع الدموع، بيد أنها انسالت وغمرت وجوهنا، وبذلنا قصارى جهدنا حتى نكتم صوت البكاء ولا نهش بالبكاء كما كنا عند مشاهدة فيلم «فتاة تباع الزهور» في الماضي. وتجشأ باي دا شنغ بالمصادفة في صوت خفيض ناعم، وأنا الوحيدة القريبة منها القادرة على ملاحظة تجشئها. وقصة الفيلم، التي تدور حول الأطفال الذين اقتربوا الآثام وكانوا كرهائن تحولوا من الخوف والرعب والكراهية إلى التقارب والتآلف، جعلت باي دا شنغ متأثرة للغاية، وحكت قصة الفيلم لزملائها في قسم المبيعات أربع مرات. وتلقيت منها مكالمات هاتفية طويلة بعد أن رجعت إلى المدينة «B». وقالت إنها لم تشعر قط بأنها تحب الأطفال بحماسة هكذا إلا بعد أن شاهدت

هذا الفيلم. وكانت هذه المرة الأولى التي عرفت فيها إعجابها
بوظيفتي، وسألتنني إذا كان هناك احتمال أن تنتقل للعمل في
دار الأطفال للنشر اعتمادا على علاقتي، فقد بدأت التفكير
مليا في تغيير وظيفتها وأسديت لها النصح بألا تكون متوترة
الأعصاب، والعمل في دار النشر ليس سهلا وسلسا، وفيما بعد،
لم تصر على تبديل عملها مرة أخرى، وذلك ليس لأنها انصاعت
لنصيحتي، بل لأنها - فيما يبدو - بدأت الحب من جديد.

(٦)

باي دا شنغ تعرفت إلى «شياشين» في حارة «فوما»، عندما كان يقود دراجته وعند الانعطاف صدمها وهي تترجل في الطريق. ولم يكن الصدام قويا، ونجم عنه كشط طبقة رقيقة من الجلد في قدمها، واعتذر لها بكل ما يملك من قوة، كما أخرج من جيبه لصقة الجرح وأصر على أن يلصقها على قدمها الصغيرة بنفسه. وفيما بعد، سمعت باي دا شنغ أنه قال في ذلك اليوم إنه كان يعتزم الذهاب إلى الدار الريفية الشرقية رقم «٣»، لتقصي أحوالها، لأن صاحبها مستر جيان يريد تأجير غرفة البواب ومساحتها ثمانية أمتار مربعة. وكان شياشين لديه نية ويبغي استئجارها أصلا، ويأمل أن يخفض مستر جيان الإيجار، ولكنه لم يقدم أي تنازلات، ولذا صرف النظر عن استئجارها.

ويعتقد شياشين أنه يتحلى بالمواهب والقدرات، ولكنه من قليلي الحظ في ذلك الزمان، والفرص السانحة في المجتمع يستولي عليها الآخرون. وتخرج في الجامعة الاجتماعية، ومنذ أكثر من عام شارك آخرين في تأسيس شركة، وأدار ثماني أو تسع شركات، كما أدار استديو للصور الملونة، بالإضافة إلى المتاجرة في البنسيلين. ولم تدم هذه الأعمال التجارية طويلا،

ولم يحقق مكاسب منها أيضا، وساءت علاقته مع أبويه، ويفكر جديا في مغادرة البيت والانتقال إلى مكان آخر. وطلب من باي دا شنغ أن تساعد في البحث عن بيت إيجاره معقول، وذكر أنه لا يفكر في رؤية أبويه أبدا طوال اليوم. وقدمت له باي دا شنغ معلومات كثيرة عن تأجير الشقق، وذهبت معه مرتين لفحص أحوال الشقق. وبعد معاينة الشقة، يريد أن يدعوها إلى تناول الطعام. ولكنها قالت: أنا أدعوك، وأنت تدعوني عندما تصبح ثريا في المستقبل.

باي دا شنغ تقود شياشين وتدخل حارة «فوما». ومنذ ذلك الحين فصاعدا، يتناول شياشين الطعام في بيت باي دا شنغ في فترات متفاوتة. يأكل ويتحدث إلى باي دا شنغ عن بعض خططه، خطة البيزنس، خطة تحقيق الثراء، خطته في افتتاح مصنع كيماوي في محافظة ما بمقاطعة معينة المتاخمة لمدينة بكين ويشاركه اثنين من زملاء الدراسة. وتطراً تغيرات على خططه، ولكن باي دا شنغ تثق به بعمق ولا تراودها الشكوك نحوه. وذكر أنه يحتاج إلى المال لتأسيس المصنع الكيماوي. وترغب باي دا شنغ في أن تقرضه من مدخراتها عشرة آلاف يوان وتكمل عجزه المالي. ولكن - فيما بعد - لا يحتاج شياشين إلى نقودها لأنه لا يرغب على حين غرة في إقامة هذا المصنع.

وأشعر بالاشمئزاز الشديد تجاه العلاقة بين باي دا شنغ وشياشين. ولا أحب شابا يقيم في بيت فتاة بريئة يأكل ويشرب مجانا، فضلا عن أنه «يعيش مجانا» بصورة كاملة. وقلت لباي دا شنغ إن شياشين لا يستحق أن تضيعي وقتك معه سدى،

وقالت إنها تفهمه أكثر مني، ولا أنظر إليه بأنه صفر اليدين الآن، وأنها تحب موهبته. آه، لم أتوقع أنه يتحلى بالموهبة، ولم يكن في الحساب، أن باي دا شنغ تقع في «غرامه». وطلبت منها أن تضرب مثالا أو مثالين لإظهار موهبته، وتفكر قليلا ثم تقول إن رد الفعل لديه سريع جدا، ويجيد الإمساك بالذباب بيديه. وقلت لها أنتما الآن، ما ماهية العلاقة التي بينكما؟ فقالت إن حديثهما لم يتطرق إلى هذا الموضوع، وشياشين شريف جدا، وذات يوم في المساء استمرت الدردشة بيننا إلى منتصف الليل، ولم يعد شياشين إلى بيته، ونامت باي دا شنغ على السرير الكبير داخل الحجرة، أما شياشين فقد نام على السرير الطواء خارج الحجرة، وقضينا ليلة يسودها التفاهم المتبادل، ولم تشهد ما يعكر الصفو من المحرمات.

ويمكن القول إن مثل تلك العلاقة الشريفة بينهما صافية مثل البلون، كما أنها تتأرجح بين الموت والحياة، هل هي صداقة خالصة بين رجل وامرأة، أم الأخوة التي تجمع بين صديقين؟ وربما باي دا شنغ لا تعرف استنتاج هذا التحليل طوال حياتها. وأنها تتوق إلى أن تظفر بحب الرجل الذي يحبها. ولا شك في أنها وقعت في هوى شياشين، ولكن لا تعرف أسلوب التعامل معه. والدروس المستفادة من تجربتها مع كل من قوا هونغ، وقوان بنغ يو ماثلة أمام عينيها، فضلا عن تحذيري لهما دون مداراة أو موارد إذا كانت تريد أن تختفي وتناى عن الأنظار، فمن المحتمل جدا أن تتظاهر بصورة زائفة وتتكلف التحفظ. وحذرت نفسها قائلة: يجب التروي والبطاء قليلا بصورة لطيفة ومهذبة، كما

قامت بإرشاد نفسها أيضا قائلة: يجب أن أكون رصينة ومرتزة أيا كانت الأسباب، ولا أكون عجولة، كما تتوق أيضا لأن تكون مثل الفتاة التي تجذب الناس وتقوم بتجميل نفسها مثل الجاذبية والنعومة عند شياوفين، والتدليل والدلال عند فتاة شيدان شياو ليو. وما يثير الأسف أن الدمج بين النظرية والتطبيق يكون في أكثر الأوقات غير مناسب دائما. وعندما تريد أن تكون بطيئة ومتردية تصبح أسرع من ذي قبل، وعندما تنوي التظاهر بالرزانة، تشد أذنيها وتحك خديها بصورة أكثر من قبل، وعندما تنمص حاجبها وتترين وتتجمل وتنظر في المرأة تجد نفسها قبيحة أكثر من قبل ألف مرة. تضحك بـ «نعومة» تجاه المرأة، ومثل هذه «النعومة» لم تزد مع الأيام لدى باي دا شنغ، بل هي «نعومة» تبدو مباغته ومتكلفة، ثم ترتعد أوصالها جراء تلك النعومة الفجائية.

وفي طرفة عين، انقضى أكثر من نصف عام على التعارف بين باي دا شنغ وشياشين. وأقامت حفلة عيد ميلاد لشياشين في حارة «فوما»، كما فعلت من قبل مع كل من قواهونغ، وقوان بنغ يو. وباي دا شنغ من السهل جدا أن تنسى، كما تبدو عنيدة بعض الشيء. ومن يوضح لماذا تصر على انتهاج الأسلوب نفسه في محاولتها تعميق علاقاتها مع الرجال؟ وهذه المرة - على غرار المرتين السابقتين - هي التي طلبت إقامة حفلة عيد الميلاد لشياشين. ودور شياشين يقتصر على الموافقة، إنه وافق وقال لها «أنت رائعة حقا». وهذه الجملة: «أنت رائعة حقا» جعلتها تشعر بقوة أن كل شيء في ذلك المساء يتسم

بالأهمية القصوى، وفي الخفاء رسمت صورة لنفسها من صفاتها الهدوء والرصانة، وإدراك ماهية الأمور، ولا للذل، ولا للخطرسة. ولكن عندما أوشكت الأحداث على الوقوع، كانت أكثر ارتباكاً وحيرة من قبل، ولا تعرف أين تقف أقدامها، وحل الدخيل محل الأصل. ولا يوجد مقياس لكون هذه الجملة المؤلفة من ثلاث كلمات: «أنت رائعة حقاً، تسبب ارتباك تصرفاتها. وكان ذلك في يوم السبت، وقضت اليوم كله في اختيار الملابس التي ترتديها في هذه الأمسية. وفتشت ويحثت في الصناديق وخزانة الملابس، وتقارن بين ألوان الملابس وتنسيقها. وارتأت أنها إذا ارتدت ثياباً جديدة، ستشعر بأنها متصنعة، وإذا ارتدت الملابس القديمة ستشعر بأنها لا ترفع روحها المعنوية، وإذا ارتدت الألوان الهادئة تخشى أن تبدو في عين شياشين طاعنة في السن، وإذا ارتدت الألوان الصاخبة تخشى أيضاً أن تنال كثيراً من مكافئها ومنظرها. وراحت تقلب وتختار من كومة الملابس وتنفض الغبار عنها، وتضع التحدي أمام نفسها. وأخيراً، عقدت العزم بنية صادقة أن تخرج الآن، لا بتياع ملابس من المتجر التجاري الكبير «يانشا» (لوفتهانزا) ونظيره ياتي، ولكنهما بعيدين ولا يمكن أن تذهب إليهما، والأقرب إليها حي شيدان، وعرجت على السوق التجاري في شيدان واختارت كنزة صوف محبكة وبلا أزوار ويختلط فيها اللون الأسود بالأحمر، وذلك حتى تشعر بالرضا ويهدأ روعها. وشعرت بأن ألوان هذه الكنزة مستقرة، ولكنها ليست جامدة، واللون الصاخب فيها ينضوي على الهدوء. والألوان ليست متنافرة، بل متناسقة سواء كانت

سوداء أو حمراء. ومن يدري فربما عندما تعود أدراجها وترتدي الكنزة وتنظر في المرأة ترى نفسها تشبه «الهودج». وارتأت أن شياشين على وشك الحضور بعريته، وطاولة الطعام خاوية. وخلعت الكنزة بسرعة، وفتحت الثلاجة وأخذت الكاتو، وتشكيلة الخضراوات التي جهزتها أمس، وكانت النتيجة أنها قلبت علبة تشكيلة الخضراوات الجاهزة، وانقلبت العلبة رأسا على عقب على ظهر قدمها، ووسخت شبشبها القماشي الجديد. ولكن ماذا أصابها؟ وماذا تريد أن تفعل؟ وباتت مثل المجنون.

وليس من السهل أن تجهز الطعام على أتم الاستعداد، ثم اكتشفت أنها ترتدي حمالة الصدر فقط، وتروح وتجيء بسرعة في الحجرة. تخفض رأسها عرضا وتلقي نظرة على صدرها، وتشعر دائما بالضيق والحرج لأن صدرها يكبر بصورة دميمة. ويجعلها ذلك لا تطيق النظر إلى نفسها بعناية واهتمام، ثم تعود إلى كومة الملابس المتناثرة والمبعثرة، وتلتقط قميصا رياضيا وتطرحه على جسمها.

وفي ذلك المساء، أكل شياشين الكثير من الكاتو، واحتست باي دا شنغ الشراب كثيرا. وأقيمت حفلة عيد الميلاد في جورائع حقا. ولكن باي دا شنغ شربت كثيرا وهو ما سبب جلبة واضطرابا فجأة في أفكارها التي تتسم بـ «رياطة الجأش والتحفظ»، وعلى أية حال، حافظت كرها على هذا الجو الرائع على غرة أيضا. إن قلقها، وإرهاقها، وآمالها التي لم تحققها، وتمنياتها الحارة، ورغبتها العزيزة التي بدأت تفكر فيها منذ العاشرة، وتأمل أن يعترف بها الناس، بدا ذلك كله من الشرر المتطاير من المفرقات

وأحدث دويًا في فترة قصيرة وجلب معه الأضواء الساطعة. وبدأت تطلب من شياشين أن يتكلم، والحيلة التي لجأت إليها بسيطة وصريحة وتتحلى بالإجبار، كما تنطوي على الإكراه إلى حد ما، كأنما مكافأة حفلة عيد الميلاد هي أن شياشين يجب أن يعرب عن عواطفه وموقفه من علاقتهما، ولا يحتمل ذلك التسويف. ولم يخطر ببالها أن إقدامها على هذا التصرف لا يلحق ضررًا بالآخرين إطلاقًا، ولكنها لا تستطيع التراجع مرة أخرى.

باي دا شنغ تقول لشياشين تكلم ولو بكلمات قليلة، من اللازم أن تتكلم. يقول شياشين: عندي شعور مبهم، أشعر سلفًا بأنك ربما أكثر الناس استحقاقًا للشكر والامتنان في حياتي. وتلاحقه باي دا شنغ بالسؤال التالي: وماذا أيضًا؟ ويقول: أشكرك شكرًا جزيلاً على وجه الخصوص حقًا. كان يتكلم بصدق وإخلاص، ولكن لا يجيد دائمًا توضيح بعض الأشياء غير السعيدة. لا تكل باي دا شنغ من ملاحظته بالأسئلة، وتقول: ماذا في جعبتك من كلمات أخرى، بالإضافة إلى شكرك وامتنانك؟ بدا شياشين مشدوها، ويقول إنه لا يريد في الأصل أن يتحدث كثيرًا في يوم عيد الميلاد، ولكنه يدرك منذ زمن بعيد الكلمات التي ترغب باي دا شنغ أن أتفوه بها. وفي الأصل، كان يعتزم تقديم رؤية مستقبلية حول علاقتهما، ولكن ليس اليوم، ربما غدا، أو بعد غد.. ولكن كان يعتريه شعور مسبق ويسترسل في الكلام ولا يهدأ. وقال إن علاقته مع باي دا شنغ لا يمكن أن تشهد تطورًا آخر. وهناك حادثة تركت انطباعًا

عميقا جدا في نفسه هي: عندما جاء هنا في ذاك اليوم لتناول طعام العشاء، وبينما باي دا شنغ تطبخ في القلاية، تلقت مكالمة هاتفية. ويتطاير الدخان من القلاية في ذاك الجانب، وهي في هذا الجانب ترفع سماعة الهاتف بتأن وتنهمك في الدردشة. القلاية في ذاك الجانب تحترق وهي لا تزال تتحدث في الهاتف، مما أدى إلى تلطيخ جدار المطبخ ببقعة سوداء كبيرة، وكاد سقف المطبخ يحترق. وأردف شياشين قائلا إنه لم يفهم لماذا لم تستطع باي دا شنغ أن تخبر من تتحدث معه هاتفيا أنها تطبخ الآن، لا سيما أن هذه المكالمات الهاتفية غير ذي أهمية. كما كانت تستطيع إغلاق موقد غاز الفحم أولا، ثم تواصل الدردشة في الهاتف. ولكنها أصرت على...، أصرت على الطهي في القلاية والتحدث في الهاتف في آن واحد. وأضاف شياشين أن أسلوبها في الحياة على هذا النحو جعله يشعر بعدم الارتياح كثيرا.. باي دا شنغ تقاطع كلامه الخاص باحتراق القلاية وتقول إن ذلك مجرد هفوة مؤقتة وليس له علاقة بتصرفاتها الحياتية. يقول شياشين: حسنا، نعتبر ذلك هفوة مؤقتة. ولكنني أصر على أنني لا أتحمل مثل هذه الهفوة. ويواصل حديثه قائلا: وهناك أيضا موضوع آخر، باي دا شنغ تعرفت إلى شياشين منذ فترة طويلة وتوافق على إقراضه عشرة آلاف يوان لإقامة المصنع الكيماوي، أليس هناك احتمال أن يكون شريرا ويرغب في خداعها ونهب أموالها؟ لماذا تصدق بسرعة هكذا الرجل الغريب الذي يقف أمامها، وفي الحقيقة لم أفهم.

تتدفق كلمات شياشين ومن الصعب كبح جماحها، والحقائق التي عددها هي حقائق فعلا، وعلى الرغم من أن مشاعره فظة، ولكنها ليست خاطئة. إنه رجل يفتقر حتى إلى عمل مستقر، رجل يعول نفسه بالقوة، رجل يمكث في بيت باي دا شنغ ويتمسك بالحق وشجاع لا يهاب، ويتمتع بتناول الكاتو الذي قدمته له في عيد الميلاد، كما يستطيع أن يلوح بيده أمام باي دا شنغ خلاف ما كان متوقعا، وينبش الأخطاء ويتشدد في النقد. والفتاة باي دا شنغ التي في حالة يرثى لها لم يتوقع منها أنها لاتزال تكابر في الخطأ قائلة: أستطيع تغيير أسلوبى! آه، أستطيع تقويم نفسي!

في نهاية المطاف، أصبحنا عاجزين عن مناقشة الزواج. ويغادر شياشين بيت باي دا شنغ بعد حفلة عيد الميلاد. وتنخرط باي في البكاء، وتشعر بالاضطراب في قلبها، وتقول بصوت مهذب: امش كما تشاء، كما أود أن أبلغك أن حارة «فوما» سوف تهدم حالا، وبيتي القديم المؤلف من حجرتين يمكن تبديله - على الأقل - بوحدة سكنية تضم ثلاث حجرات، ثلاث حجرات! شياشين لم يدر رأسه، والرجل الذكي لا يعرف استدارة الرأس وقتئذ. قلب باي دا شنغ أكثر قلقا، ثم تندفع نحو شبحه وتقول: امش كما تشاء، لن تجد فتاة طيبة القلب مثلي مرة أخرى! هل سمعت كلامي؟ لن تجد فتاة طيبة القلب مثلي! عندما يسمع هذا الكلام يدير شياشين رأسه، ويدور جسمه، ويقول لباي دا شنغ: «في الواقع، كل ما أخشاه هو ما ذكرته أنت، ومن المحتمل جدا، لا أجد فتاة مثلك». وهذا كلام حقيقي، ولكنه

ينصرف. وصراخها الذي يشبه ابتياع النفس عجل بانصرافه. إنه ليس مدينا لها، وهو ليس زيونا قال إنه سيشترى، ثم لم يشتري، كما أنه ليس زيونا أخذ أشياء مجانا، ولم يدفع الثمن، بل هو لم يلمس يدها.

باي دا شنغ لم تنظم طاولة الطعام، ولم ترتب السرير منذ فترة طويلة جدا. وظلت بقايا الكاتو من باي دا شنغ وشياشين فترة طويلة فوق الطاولة وأصابها العفن، ويوجد بجوارها كأسان تعلوهمما الأوساخ والبقع الزيتية. وتنشر باي دا شنغ بصورة فوضوية فوق سريرها في داخل الحجرة تلك الملابس التي كانت تقلبها مرة بعد مرة في يوم حفلة عيد ميلاد شياشين. وتعود أدراجها بعد انتهاء العمل وتقبع في كومة الملابس وتغط في نوم مسهد. وذات يوم، يدلف باي دا منغ إلى حارة «فوما» لزيارة باي دا شنغ، ويصرخ فور دخوله قائلا: «أختي الكبيرة، ماذا أصابك؟».

(٧)

يشعر باي دا منغ بالدهشة إزاء الأحوال النفسية التي تعيشها باي دا شنغ إذ ذاك. بيد أنه لم ينتابه القلق الشديد. فهو يفهم أخته الكبرى، ويعرف أنه لا يحز في نفسها حقا أي أمر من الأمور. ووضعت أحوالها النفسية وقتئذ بعض العقوبات أمام الموضوعات التي يعتزم أن يناقشها معها، فقد جاء أصلا لمناقشة موضوع إزالة حارة «فوما».

ويتزوج باي دا منغ قبل باي دا شنغ. وزوجته تدعى مين مين وتعلم الموسيقى في مدرسة معلمي الأطفال. وكانت باي دا شنغ الوسيط بينهما. وبعد زواجه، لم يبرح باي دا منغ البيت، حيث إن وحدتي عمله وعمل زوجته يفتقران إلى الأمل في توزيع الوحدات السكنية، ثم استقر رأيهما على الإقامة في البيت. وتبذل مين مين قصارى جهدها من أجل تحسين علاقاتها مع الحمى والحماة. وعلى الرغم من أن تشكيلة المعيشة على هذا النحو جعلت مين مين تشعر بالعديد من الصعوبات وعدم الارتياح. ولكنها الحقيقة، واضطرت أن تحسب حساباتها بدقة على هذا النحو. في المستقبل عندي طفل، ومن المنطقي أن ترعاه الحماة المتقاعدة، ولا تقوم حتى بإعداد الطعام بعد أن تنصرف

من عملها هي وزوجها ويعودان إلى البيت، وتقذح زنادهن وتزيد بعناية ما لهما وما عليها، ولا تستطيع أن تدعي مواساة الذات. وإذا لم تتوارد أخبار عن هدم حارة «فوما»، فالزوجان يقطنان في البيت ردحا طويلا، وقد اكتسبت مين مين الخبرات والمهارات من خلال معاشرتها واحتكاكها بالحماة. والإصرار على إزالة حارة «فوما» آنذاك كان خبرا مؤكدا. وتلقت باي دا شنغ بلاغا جاء فيه أنها يمكن أن تحصل على وحدة سكنية بمثل مساحة البيت الذي تقيم فيه مكونة من ثلاث حجرات ومجهزة بالغاز والمدفأة في نطاق الطريق الدائري الرابع. وفي فترة وجيزة، تسود الفوضى هذه الحارة، وينتشر في ساحات الديار أنين الشكاوى وتنهدات الحسرة والألم، والتأثر الشديد والقلق. والسواد الأعظم من أهالي الحارة لا يرغبون في الانتقال إلى مكان آخر، ولا يرغبون في مغادرة المنطقة الذهبية في مدينة بكين التي حرسوها طوال حياتهم. والجدة جاو القاطنة في الدار الرباعية الشرقية رقم «٩»، وسقطت أسنانها تقول لباي دا شنغ: أنا من أهالي بكين طول العمر، وبعد أن أصبحت طاعنة في السن يطردونني من بكين. وتقول باي دا شنغ: يا جدتي جاو، الطريق الدائري الرابع في بكين أيضا. وترد الجدة جاو قائلة: ليست ضاحية «شون بي» في بكين أيضا ١٩

ومستر جيان في الدار الرباعية الشرقية رقم «٣»، تحدث مع كل من صادفه، وشرح لي بوضوح قائلا: بيتنا يمكن استبداله بوحدة سكنية تتمتع بالسلم الخاص، وتضم أربع حجرات وصالتين، ونختار البناية السكنية التي تقيم فيها. ولكن الأشجار في

صحن الدار أشجار القرنفل والتفاح الشرقي، أريد أن أسألهم
إذا كانوا يستطيعون زراعتها أمام هذه البناية! ويهز مستر جيان
رأسه ذي الشعر الأشيب، بارزا للعيان خصال الرأس مالي الصغير.
تكن باي دا شنغ مشاعر عميقة تجاه حارة «فوما»، ولكنها
ليست مثل الجدة جاو، ومستر جيان، فقد عقدت العزم على ألا
تسبب مشكلة أمام أعمال الهدم والإزالة. وتبدو الحياة الجديدة،
والغرف الواسعة النيرة، والحمام الحديث أكثر أهمية لدى باي
دا شنغ عن الموقع الطبوغرافي للمبنى السكني، بالإضافة إلى
أنها آنذاك كانت تفكر بالتأكيد في شياشين، وجمال بخاطرها
منظره المثير للشفقة وهو يلهث في كافة البقاع بحثا عن شقة
يستأجرها ومناقشته تخفيض الإيجار مع المالك، ولا تدري باي
دا شنغ عدد المرات التي يردد فيها لسان حالها في أعماقها عبارة:
تزوجني، الآن عندي مسكن، وفي المستقبل سيكون عندي مسكن
أفضل!

وأحدث هدم حارة «فوما» هزة في أعماق باي دا منغ ومين
مين. وفي عبارة أدق، ظهر رد الفعل الأكبر من قبل مين مين. وذات
يوم، وفي الليل تعاني من الأرق وتقلب في الفراش وتطلب من
زوجها أن يستيقظ وتقول: إذا عرفنا سلفا أن حارة «فوما» تواجه
الهدم والإزالة، كان من الأفضل عند زواجنا أن نبادل المسكن مع
باي دا شنغ، وطلبنا منها أن تنتقل وتقيم مع أمها. ونقيم نحن
أنا وأنت في هذه الحارة. وعلى هذا النحو، ومن الطبيعي أن
تؤول إليهما الوحدة السكنية الجديدة ذات الحجرات الثلاث.
يقول باي دا منغ: الآن مناقشة هذا الموضوع باتت متأخرة،

فضلا عن أن أحوالنا المعيشية هكذا، أليست طيبة جدا؟ وتقول مين مين: لا تمتلك الحق أن تقرر أحوالنا المعيشية جيدة أم لا. بالتأكيد أنت ابن أبيك وأمك، ومهما قلت فأنا غريبة في بيتكم. أنت تشعر بأن مسكننا هكذا جيدا، هل تعرف كم تحملت من إرهاق الذهن والتكتيك؟ الإنسان يعيش ويشعر دائما بأنه يجب استغلال القدرات والمهارات، وذلك في حد ذاته يصيبني بالإرهاق والإعياء. وحلمي يتطلع إلى الانتقال ونعيش معا في مسكن مستقل، نقطن في المسكن الخاص بنا، ويتم تصميمه وترتيبه حسب أفكارنا. ويقول باي دا منغ: إذن، ما الذي تعترمين القيام به؟ تقول مين مين: هذا الموضوع - بادئ ذي بدء - لا تشاور فيه أبويك، اذهب أولا إلى باي دا شنغ وأبلغها إياه، ثم أخبر أبويك بعد عودتك. وقد يترددان بعض الشيء، ولكن لا يجوز أن يعترضا على عودة ابنتهما إلى البيت والإقامة معها. ويقاطع باي دا منغ كلام زوجته ويقول لا أستطيع إطلاقا معاملة أختي الكبرى بهذه الطريقة، إنها طوال حياتها وعلى مدى ثلاثين عاما ونيف لم تنجح دائما في اختيار حبيبها المناسب، ونحن لا نستطيع مرة أخرى نجعلها تتخلى عن مسكنها المستقل الخاص بها. تقول مين مين: حسنا، أختك الكبرى بمفردها تحتاج إلى هذه المساحة الشاغرة، ونحن أكثر احتياجا إلى مثل هذه المساحة. فضلا عن أنها تمكث بمفردها دائما وتشعر بالوحدة، وإذا انتقلت ورجعت إلى الإقامة مع الأبوين سيتبادلون الاهتمام والرعاية. حديث مين مين يسيطر على باي دا مينغ ويتشاور معها أن يذهبا معا إلى باي دا شنغ. وتقول مين مين لا أستطيع الظهور أثناء

مناقشة هذا الأمر، يجب عليك أن تذهب بمضردك وتتناقش معها. أنتما الأخت الكبرى والشقيق الأصغر قد لا تدركان أبعاد كلامكما وتستطيعان الصفع، وليس من اللائق أن أظهر في الصورة. يشعر باي دا منغ أن كلام زوجته صائبا، ولكن لا يزال يسدي النصح إليها حتى تفكر مليا وبعناية في هذا الأمر، ثم تتخذ القرار. وترفض مين مين بصرامة وتقول: هذا الأمر لا يحتمل التأخير، يجب عليك أن تذهب على جناح السرعة. ولم يجد باي دا منغ مناصا وينهض من الفراش في منتصف الليل ويذهب إلى باي دا شنغ لأن زوجته في عجالة من أمرها. وبعد انقضاء بضعة أيام، يذهب مرة أخرى إلى حارة «فوما» في ظل الإلحاح الشديد والمتواصل من زوجته.

يجلس باي دا منغ على حافة سرير باي دا شنغ ومفارشه غير مرتبة وفي حالة فوضى، وأسفل منه يضغط على كنزة باي دا شنغ ذات الألوان الحمراء والسوداء، ويدرك أن أخته الكبرى من قليلي الحظ، ويصب لها كوبا من الماء. تشرب باي دا شنغ الماء، ولم تستطع كبح مشاعرها وتأثرها، ويتعثر لسانها وتقول شياشين بدلا من باي دا منغ. تتكلم، وتبكي، وتتدفق دموعها مثل خيط متقطع من اللؤلؤ، ويدرك باي دا منغ أنها حزينة للغاية. ويجول بخاطره حب أخته الشديد له في غضون أكثر من عشر سنوات والتي مرت في لمح البصر. كما يتذكر عهد الطفولة عندما رمى قشرة الموز في صحن الدار ذات مرة، وتدوس عليها الجدة وتزل قدمها وتهوى على الأرض، ويشعر بالخوف إلى درجة القلق والارتباك، ويقول إن باي دا شنغ هي التي رمت

قشرة الموز. الجدة تصب اللعنات على باي دا شنغ طوال اليوم وتطلب منها أن تكتب نقدا ذاتيا خطيا استغرق ليلة وتوافق باي دا شنغ ضمينا على أنها اقترفت هذه «الغلطة»، ولم تفضح باي دا منغ ولم تتذكر أنها كرهته جراء «اتهامها زورا وبهتانا» لدى الجدة. باي دا منغ يتذكر كل ذكريات الطفولة، وفي الحقيقة لا يعرف كيف يطلب منها تبديل المسكن. وأخيرا، تثير باي دا شنغ انتباهه وتقول له جئت لزيارتي، هل لديك ما تناقشه؟

باي دا منغ صلب قلبه، ويكشف لأخته النقاب عن موضوع تبديل المسكن بصورة كاملة. ولم يكن في الحسبان أن تصبح باي دا شنغ غير مسرورة جدا، وتقول بالتأكيد إنها فكرة مين مين، وأدركت في التو عندما سمعت كلامه أن زوجته صاحبة هذه الفكرة، فهي تجيد طرح مثل هذه الأفكار بالفطرة. وقالت إنها تشعر بالندم منذ زمن بعيد لأنها في البداية قدمت مين مين إلى باي دا منغ، وجعلتها من أفراد عائلة باي. وتستجوب باي دا منغ وتسأله لماذا يشترك مع مين مين في خداعها؟ ألم تدرك ملامح الخداع التي تبدو عليها في الوقت الحاضر؟ أم أنت تتظاهر أنك لا تعرف تلك الأمور التي لا تتمناها منذ أمد بعيد؟ وتقول إن باي دا منغ شرير فعلا، ويفتقر إلى الضمير حقا، أنت تثير حافظتي، أعتقد أنني أصلا لا أغضب منك؟! وتقول إذا كنت تفكر على هذا النحو، فأنت ارتكبت خطأ جسيما، والآن أخبرك أنا غضبانة، أنا غضبانة جدا، أنا مفعمة بالغضب، والآن عليك أن تعود إلى البيت، وتطلب من مين مين أن تحضر هنا، لأرى كيف تجرؤ أمامي أن تكرر مرة أخرى الفكرة الغثة التي اشتركتما في اختلاقها!

تتغير نبرة كلامها من الصوت الخفيض إلى الصوت المرتفع، وكانت مضغمة بالحماسة التي لا تنضب وبصورة لم يسبق لها مثيل، ويبدو أنها تنسى نفسها وتغيرت كلماتها الساخرة اللاذعة. ولم تدرك متى غادر باي دا منع بيتها في هدوء، وبعد أن اكتشفت أنه غاب عن عينيها، أخذت تهدئ نفسها بترو. إن مغادرة باي دا منع الهادئة جعلت قلبها يخفق من الخوف والقلق، وفي هذه اللحظة، تشعر بأن ظله لم يندثر من حارة «فوما» فقط، بل حتى ربما تلاشى وجوده من الكرة الأرضية. وعلى كل حال، ما الخطأ الذي اقترفه، إنه أخوها الصغير! عندما ولد وفي قماطه أصابه السعال الديكي، وعندما بلغ العامين، سدت حبة بقولية حنجرتة واحتبست أنفاسه وكاد يموت، وفي عمر الثالثة أجرى عملية الضئاق في الأمعاء الدقيقة، وفي الخامسة وفي خريف ذلك العام سقط في البئر الجافة في صحن الدار وشجت رأسه وسال منها الدم، وفي السابعة عانى من الالتهاب السحائي، وفي العاشرة اصطدم بزملائه في الدراسة وسقط على السلم قبالة مدخل الفصل وسقط القاطع من أسنانه... دا منع يستحق الشفقة! لماذا كل تلك المصائب والحوادث المؤسفة تصيب باي دا منع وأنا باي دا شنع التي لم تصبها أية مصيبة، لماذا لا تستطيع الموافقة على أن يقطن أخوها الصغير، الذي تحبه بصورة لا تضاهي، في المسكن الجديد كما يتمنى ويشتهي. وكلما قلبت الأمر في ذهنها شعرت بوخز الضمير تجاه باي دا منع، وأجبرته على السير على درب اليأس عندما زجرته. ويتعين عليها أن تخرج وتبحث عنه في التو، تبحث عنه وتخبره بأن

تبديل المسكن لا يعتبر موضوعا مهما، وبأنها ترغب في التبديل وتعطي مسكنها له ولزوجته، ترغب في الانتقال إلى بيت الأم والأب والإقامة معهما.

عثرت على باي دا منغ في وحدة عمله وأعلنت قرارها. وشعرت بالخجل لأنها عنفت مين مين، واتصلت بها هاتفيا وكررت على مسامعها قرارها ورغبتها في تبديل المسكن معهما. وكانت كلماتها معسولة، وصوتها رقيق وناعم. وأصبحت - على حين غرة - تطلب بإلحاح منهما تبديل المسكن بعد أن كانا يتوسلان إليها أصلا، حتى إنها كانت تشعر بالقلق والاضطراب فترة طويلة إذا كانت موافقتهم يشوبها التردد ولو كان قليلا.

لقد قدمت مسكنها الخاص هدية، وتصادف عودتها إلى بيت أبويها مع اليوم الذي شهد إزالة وهدم حارة «فوما». وكانت هذه الفكرة مصحوبة بنوبة من البؤس والحزن، ويموج قلبها دائما بمشاعر عاطفية غامضة. وتواظب على الترحل في الحارة كل يوم. وتستطيع أن تتذكر الكثير من الذكريات والأحداث الماضية منذ عهد الطفولة إلى الكبر. فقد شهدت هذه الحارة قصصها مع بعض «الأصدقاء». وترغب كثيرا قبل أن ترحل من الحارة في التخلص من الآلام بهدوء، لا تريد أن ترى أحدا، وتمكث بمفردها في المسكن القديم المؤلف من حجرتين. ولا تهتم بالطارق على الباب، وتنصرف من العمل وتعود إلى البيت، ولا حتى تضيء المصباح، وتتحسس خطواتها في الظلام وتدلف إلى داخل البيت، وتنجز كافة أعمالها وسط الظلام، حتى تجعل الجميع يعتقدون أن مسكنها خال من الناس حقا. وذات يوم،

وعندما وصلت إلى مدخل البيت وتحمل في رأسها هذه الأفكار،
رأت رجلا يحمل طفلا ويقف أمام المدخل وينتظرها. إن هذا
الرجل هو «قوا هونغ».

قدوم قوا هونغ حطم خواطر باي دا شنغ المسبقة ومفادها
أنها لا تريد أن تراه أصلا، حيث لم تفلح محاولته للسفر إلى
اليابان، لأن تلك الطالبة اليابانية غيرت فكرتها فجأة ولم
تتزوج. ولكنه لم يرجع إلى مدينة داليان، وعقد العزم على
أن يستقر في بكين. وفيما بعد، حصل على العمل والزوجة في
بكين. حصل على وظيفة محرر في مكتب مجلة التجميل. وبعد
مرور بضع سنوات من زواجه، أنجبت زوجته ابنة. وزوجته تعمل
مترجمة في شركة للترجمة، وبعد أن أنجبت ابنتها بفترة وجيزة،
حصلت على فرصة للسفر إلى بريطانيا مع بعثة استطلاعية
تابعة لإحدى المؤسسات، ولم ترجع منذ ذلك الحين، بل حتى
رمت الطفلة وتركها لأبيها. وهذا الزواج الذي يشبه الحلم جعل
قوا هونغ يشعر دائما بأنه ليس حقيقة. وإذا لم يحتضن هذه
الطفلة التي أنجبها وتدب فيها الحياة، ربما كان يستطيع أن
يتظاهر صراحة أن هذا الزواج يعد حلما كبيرا، ويبدأ كل شيء
من جديد، وربما أنه مازال شابا ولم يعرف الشيخوخة بعد.
الابنة في أحضانه، وعمرها دون العامين، وتألف أباهما المسؤول
عن أكلها وشرابها وبراها، إنها كائن حي وليست حلما.

وفي هذه اللحظة، يجلس قوا هونغ على أريكة باي دا شنغ
ويشرب علبة المشروب، ثم جعل ابنته، التي يداعب النعاس
جفونها، تتمدد بجواره. قال لباي دا شنغ: لقد رأيت بنفسك

أحوالي. وتقول باي دا شنغ: نعم، رأيت أحوالك. ويقول قوا هونغ أعرف أنك لم تتزوجي بعد. وتقول باي دا شنغ: وما رأيك في ذلك؟ يقول قوا هونغ: أريد الزواج منك، كما أنك لا تستطيعين رفض الزواج مني، وأعرف أنك لا ترفضين ذلك. وبعد أن ينتهي من كلامه يركع أمام باي دا شنغ، وتبدي ملامحه قليلا من الإخلاص، وقليلًا من التهديد أيضا.

إنه مشهد لا تجود بمثله مئات السنين، رجل وقور مهيب يركع أمامك ويتوسل إليك. باي دا شنغ التي تتوق إلى الزواج منذ سنوات عديدة، تستطيع أن تتخيل نفسها أميرة تزهو بنفسها، وفي طرفة عين، يومض قلبها - حقا - بومضات الإعجاب بالذات، ومضات الشعور بالبهجة، ومضات الدوخة والدوار. ويكفيها أنها انتشت غرورا واعتدادا بنفسها حتى لو تخطى قوا هونغ الجاثم على الأرض عن اشتياقه إلى الزواج منها، أو اختلط عليه الأمر، وصعب عليه التعبير عن كل ما يجول في خاطره. ولا يوجد رجل يعاملها بهذه الطريقة، ومثل هذه المعاملة ربما تكون أيضا المرة الوحيدة التي تصادفها في حياتها. تشعر بأنها مشوشة الذهن، وتفكيرها مبهم حينًا من الزمن. وتخفض رأسها وتنظر إلى قوا هونغ الجاثم على أديم الأرض، وتشم رائحة شعره، فهذه الرائحة مألوفة لديها عندما كانا زميلين في الجامعة. وهذه الرائحة جعلت كل شيء في هذه اللحظة قريبا وبعيدا أيضا. ولا تستطيع أن تقدم جوابا، وتستجمع قواها وتسأله: لماذا؟ لماذا كل ذلك؟

يرفع رأسه، ويقول لها: لأنك عطوفة، ورقيقة الحاشية، لأنك

طاهرة وخيرة. ولم أر مثلك من قبل، وربما لا يمكن أن ألتقي
بفتاة مثلك في المستقبل. أدركت مغزى كلامي.

تطأطئ باي دا شنغ رأسها وتشعر بنوبة من الحزن الشديد
على غرة. وربما تريد عن قصد في لحظة شعورها بالدوار أن
تستمع إلى رجل يتحدث إليها ويقول إنها هي فتاة جميلة! فتاة
من الصعب جدا أن ينساها، ويشبه ذلك العديد من الرجال الذين
عبروا عن مشاعرهم تجاه فتاة شيدان شياو ليو، والفتاة شياو
فين، ويشبه أيضا مشهد الأطفال الإناث اللواتي يحطن بباي دا
شنغ ويعبرن عن شعورهن نحوها. ويشبه ذلك أيضا عندما يعبر
زوجي وانغ يونغ عن مشاعره نحوي. ولكن الرجل الجاثم على
الأرض لم يعبر لها عن مشاعره نحوها بهذه الطريقة، بيد أنها
أخيرا سمعت بأذنيها ما لم يتفوه به كل الرجال الذين عرفتهم،
وذلك كلما كانت في نظرهم. مما يسبب شعورا ما بالتعاسة،
وانتابتها مشاعر المعاملة غير العادلة التي سببت جرحا غائرا
في قلبها. تتحدث إلى الرجل الجاثم، وكلماتها مفعمة بالحق
والبغضاء، وزاخرة بالبؤس، ومملوءة بالتنوير والإرشاد. من أجل
ذلك كله! أنت، إذن، لا تستطيع أن تقول إنني اخترت غيرك!

يقول الرجل الجاثم على الأرض: لقد أفصحت عما يعتل
في نفسي ويدور في ذهني حقا. أنت فتاة صالحة حقا.. وعشت
طوال هذه السنوات وكان من الصعب إدراك الحقيقة.. وتقاطعه
باي دا شنغ قائلة: ولكنك لم تفهم، الآن قد أصبحت هذه «الفتاة
الصالحة»، ولم يدر بخلدي قط أن أصبح هكذا!

مازال الرجل جاثما على الأرض، وتبدو عليه فقط أمارات

الحيرة، ثم تقول باي دا شنغ أيضا، لماذا لاتزال لا تفهم مغزى كلامي، أنا الآن أصبحت هذه «الفتاة الصالحة»، لم تكن رغبتني - قط - أن أصبح هكذا!

يقول الرجل الجاثم على الأرض، أنت تقولين نكتة يا باي دا شنغ، أمعقول أنت تعتقدين أنك من الممكن أن تتغيري وتصبحي إنسانا آخر؟ أنت من المستحيل، أنت من المستحيل أن تصبحي إنسانا آخر إلى الأبد!

تصرخ باي دا شنغ بصوت عال، وتقول: كم تبعد الأبدية عنا؟

* * *

جلست في مقهى الطابق الثاني في متجر «شيدو» أنتظر ابنة خالتي الصغرى باي دا شنغ التي حضرت. وطلبت لها شراب الكاكاو البارد، وقلت أنا أعرف أنك مازلت ترغبين في مواصلة مناقشة موضوع زواجك من قوا هونغ معي. وأقول لك الحقيقة إن هذا الزواج غير ذي معنى، ولا تترددي مرة أخرى، أنت لا تستطيعين الزواج منه. وتقول باي دا شنغ إنني حددت موعدا حتى نتقابل لأنني أرغب - حقا - في مناقشة أمرقوا هونغ معك، أنت تعتقدين أنني مازلت حمقاء، كما كنت في الماضي؟ آه، لم أعد بلهاء، ولم أعد حمقاء مرة أخرى. أوه، يركلني بقدمه إذا أراد التخلص مني، وأصبح طوقا كبيرا، وأخيرا، أحمل ابنته، التي أنجبها من زوجة أخرى، في حضني وأعود إلى هنا، وليس عندي أسرة! وقد ركع أمامي، ولكن ذلك لا يعني أنني عندي أسرة! وأدهشني «الوعي» الذي أصبحت تتمتع به باي دا شنغ، وخوفا من أن يرق قلبها وتغير رأيها مرة أخرى، استجمعت قواي وقلت:

أعرف أنك لست حمقاء، والإنسان ينضج رويدا رويدا. وهذا الأمر ليس سهلا أصلا، ولا تعتقدي أنك عندما لا توافقين يعني أنه يوافق، وكيف تبرر الخالة وزوجها - في هذا الصدد - موضوع زواجكما؟ وبالإضافة إلى ذلك، أنت أعطيت شقتك لباي دا منغ، وإذا كنت ترغبين حقا في الزواج من قوا هونغ، فهل تستطيع الخالة وزوجها الموافقة على أن تقيما في بيتهما، فضلا عن ابنة قوا هونغ؟ وتقول باي دا شنغ: لا تقولي إن أسرتنا لا توافق على إقامتنا معها، وكانت أسرة قوا هونغ تقطن دائما في بيت أخت زوجته الكبيرة، ولكنها الآن ترفض إقامة الأب وابنته. ولذلك، لم أعره اهتماما، وقلت: جوهر الموضوع لا يستحق اهتمامك. وتقول باي دا شنغ: مثل هؤلاء الأشخاص لا أرغب في الاهتمام بهم مرة أخرى طوال حياتي. وقلت: هل عمرك ما زال طويلا؟ وترد قائلة: ومن ثم، أريد أن أصبح إنسانا. نتكلم ونكرع مشروب الكاكاو البارد في جرعة واحدة، وتطلب مني مرافقتها وهي تشتري مستحضرات التجميل. وقالت إنها تريد تغيير الماركة التجارية لتلك المستحضرات التي تستعملها دائما مثل ماركة «أويوه لاي»، وتريد أن تستبدلها بماركة «CD»، أو ماركة «تشان بي»، ولكن أسعارهما باهظة، وتغرق في أحزانها من دون داع، وتستخدم من اليوم فصاعدا لبن الأطفال. وقد زعمت النجمة السينمائية الشهيرة صوفيا لورين أنها تستعمل فقط لبن الأطفال.

وتجولت مع باي دا شنغ في كل طوابق متجر «شيدو». وفي قسم الأزياء الحريمي، تتمسك باي دا شنغ - على خلاف أسلوبها المعتاد - بالملابس التي لا تناسبها تماما وتصر عليها: الأزياء

المرقشة الزاهية أو الشفافة للغاية، أو المحبوكة المطاطية. وأحاول كبح تصرفاتها باستمرار، ولكنها عنيدة، وقلقة أيضا، ولا تنصاع لنصيحتي فقط، بل تتعارك معي أيضا. ونشب بيننا شجار، وقلت لها إن الملابس التي تحبينها لا تعجبني، وتقول باي دا شنغ: لماذا أحب الملابس التي أنت تصرين على نبذها؟ قلت: لأنها غير مناسبة لك. وتقول باي دا شنغ: لماذا غير ملائمة، أمعقول أنني لا أمتلك حق اتخاذ القرار في شراء قطعة ملابس. وقلت: لكن أنت تتذكرين - إلى الأبد - مثل تلك الملابس غير المناسبة لك. وتقول باي دا شنغ: ماذا يعني أنها غير مناسبة إلى الأبد، وما هي الأبدية؟ أنت تقولين ما هي الأبدية؟ الأبدية - على كل حال - بعيدة جدا!

والتزمت الصمت في ذلك الحين، حيث ينتابني شعور مسبق، شعرت بأن كل شيء ليس سهلا كما جال بخاطري سلفا، ولم يكن في الحساب، أن ألقى مكالمة هاتفية من باي دا شنغ في ظهر اليوم التالي، وأخبرتني أنها تتلفن إلي وهي في المكتب الخالي من الأفراد الآن. وطلبت مني أن أخمن ماذا وجدت عندما كانت تخطط الملابس فوق الأريكة بعدما عادت إلى البيت مساء أمس؟ وقالت إنها عندما كانت تخطط فوق الأريكة وجدت منشفة مزركشة قليلا، ومتجعدة ومكرمشة، وقدرة بعض الشيء. بالتأكيد أن قوا هونغ نسيها هنا عندما جاء لزيارتي حاضنا طفلته منذ يومين، إنها بالتأكيد منشفة ابنته. وأضافت أن تلك المنشفة الصغيرة جعلتها حزينة فترة طويلة، والمنشفة تفوح منها رائحة اللبن الحامض، وتهتم أن تغسلها وتنظفها، وتارة تغسل، وتارة أخرى تبدي شفقتها

تجاه الطفلة. وأخبرتني أيضا بأن الأب قوا هونغ وابنته يعيشان حياة مريرة، حتى الطفلة تفتقر إلى منشقة نظيفة. وقالت إنها لا تستطيع أن تعامل قوا هونغ بهذه الفضاظة، إنه مسكين حقا، إنه يثير الشفقة فعلا.. وتكرر باي دا شنغ كلمة «مسكين» مرات عديدة بصورة متتالية، وتقول: لقد فكرت مليا في الأمر، ولا تزال لا تستطيع أن ترفض الزواج من قوا هونغ. ولضت انتباهها وقلت لا تنسي أنك رفضت إياه. وتقول باي دا شنغ: «ومن ثم، ضميري قلق إلى الأبد». وسألتها: كم تبعد الأبدية عنا؟

الذعر يصيب باي دا شنغ في الهاتف، وتواصل حديثها وتقول إنها لا تعرف كم تبعد الأبدية عنا؟ ولكن من المحتمل - إلى الأبد - أنها لا تتغير وتصبح مثل الإنسان الطيب طوال حياتها. وكان ذلك - في الأصل - أمرا ليس سهلا، بل يبدو أكثر صعوبة من زواجها بقوا هونغ.

إذن، ترغب باي دا شنغ - في نهاية المطاف - في الزواج من قوا هونغ. وأنا لا أريد اللغط معها في الهاتف أو إسداء النصح إليها، وقلت فقط: وهذه النتيجة كنت أعرفها - حقا - منذ وقت مبكر. في ذلك المساء، أترجل أنا وزوجي وانغ يونغ في شارع تشانغآن الذي يتوسط قلب العاصمة بكين، فقد قاد سيارته من المدينة B» وحضر إلى بكين خصيصا حتى يستقبلني ونعود معا إلى بيتنا. ولم ألق قط إلى رؤية زوجي كما كانت رغبتني في ذلك اليوم. وقلبي يغص بالحب اللامحدود والمشاعر العاطفية تجاه زوجي. وأريد أن أضع رأسي فوق منكبيه العريضين القويين، وأقول له: «أمل أن أعاملك معاملة حسنة إلى الأبد، إلى الأبد». ووضعنا

السيارة في جراج فندق القوميات. وتقع حارة «فوما» بانحراف في الجهة المقابلة للفندق، وترجلنا داخل الحارة، وغادرناها، وعرجنا على شارع تشانغان. ولم نذهب إلى دارباي دا شنغ ونزعجها. وليس في جعبتنا عذروقلت لزوجي محاولة البحث عن تبرير: أنت تعاملني معاملة حسنة إلى الأبد؟ زوجي يسحب يدي، ويقول: أنا أحبك إلى الأبد.. إلى الأبد. وقلت: كم تبعد الأبدية عنا؟ يرد زوجي قائلاً: ماذا؟ فقلت: إن حارة «فوما» على وشك الإزالة، كما أخبرته أن باي دا شنغ ترغب في الزواج من قوا هونغ. وقلت له أيضاً إنها بدلت مسكنها مع باي دا منغ. كما جال بخاطري - بالإضافة إلى ذلك - أن أقول لزوجي وانغ يونغ إن باي دا شنغ التي يلتصق - إلى الأبد - بمؤخرة عنقها قطعة من معجون غسيل الشعر صفار البيض، والتي تقف أمام صنبور المياه وتغسل منشفة الطفلة الصغيرة التي لا تعرفها، أصبحت الآن لا يمكن تقويمها على هذا النحو.

لا يمكن تقويم باي دا شنغ، ولذلك أكرهها إلى الأبد. وكم تبعد الأبدية عنا؟

ولا يمكن إصلاح باي دا شنغ، ولذلك أحبها إلى الأبد. وكم تبعد الأبدية عنا؟

ومن أجل هذا الحب، وهذه الكراهية، وحتى لو أزيلت حارات بكين وسويت بالأرض، سابقى المتفرجة المخلصة على بكين إلى الأبد أيضاً.

آه، الأبدية بعيدة جداً!

آه، أنت الفتاة شيانغ شيويه

ليس غريبا أنك لم تكتشف القرية الصغيرة «تاي أرقو» إذا لم يوجد مخترع القطار، وإذا لم يقيم أحد بمد خط سكة حديد في بطن الجبل. وتتوارى أعماق هذه القرية وعشر أسرات ونيف في الجوف العميق لهذا الجبل الضخم، وتتقبل في هدوء وصمت - من الربيع إلى الصيف، ومن الخريف إلى الشتاء - الوداعة والفضاظة اللتين يجلبهما هذا الجبل كما يشاء.

بيد أن هذه القرية شهدت مد قضيبين دقيقين لامعين. وامتد الخط الحديدي بجسارة إلى سفح الجبل وسبر أغواره بلا ضجة متقدما إلى الأمام، مجتازا المنعطفات والتعرجات حتى وصل أخيرا إلى أسفل القرية، ثم يخترق النفق المظلم نحو قمة الجبل متجها صوب مكان ساحر قاص.

وبعد انقضاء فترة وجيزة، دخل خط السكة الحديد حيز التشغيل بصورة رسمية، وتزاحم الناس في مدخل القرية لمشاهدة القطار الأخضر الطويل كالتنين على الطريق وصفارته تزار، مقلا الغرياء من خارج الجبل، وحاملا النسيم المنعش، ويعدو سريعا ويكاد يلامس ظهر القرية الفقيرة الضخمة «تاي أرقو». ويلتهم القطار الأرض التهاما إلى درجة أن قعقات

عجلاته فوق القضبان يصدر منها صوت وكأن لسان حاله يقول:
القطار لا يقف! القطار يمرق سريعاً! أجل، القطار ليس في
جعبته سبب يجعله يقف في هذه القرية، وهل يرغب أحد من
قاطنيها في السفر بعيداً عن منزله؟ وهل يأتي أحد من خارج
الجبل لزيارة أقاربه في القرية؟ أيوجد في القرية مخزون نفطي
ومنجم ذهب في جوف أرضها؟ إن قرية «تاي أرقو» - في جميع
المجالات - لا تتحلى بالمزايا التي تجعل القطار يقف فيها.

ولكن، لا أتذكر بجلاء متى أدرجت محطة قرية «تاي أرقو»
في جدول مواعيد القطارات. ربما كان ذلك بناء على طلب ركاب
القطار، وكان من بينهم من ينظر إلى كلماته بعين الاعتبار
وتريطه وشائج قرى بالقرية، وربما أن عامل القطار المبتهج
اكتشف أن القرية بها ثلة من الفتيات الحسنات اللواتي تتراوح
أعمارهن بين السابعة عشرة والثامنة عشرة. وكل قطار يعدو
بأقصى سرعة ويمر بالقرية، يصبح هؤلاء الفتيات مثل معاون
المحطة يقفن في مدخل القرية، يرفعن أعناقهن ويسلطن
نظرات الشوق واللهفة ويرمقن القطار بتركيز شديد. وتشير
إحداهن إلى عربة الركاب، وتستطيع أن تسمع بين الفينة والفينة
صرخات حادة تصدر منهن جراء تعاركهن وتشابكهن بالأيدي.
وربما أن كل شيء على ما يرام، لأن قرية «تاي أرقو» صغيرة جداً
إلى درجة تجعل قلب المرء يشعر بعدم الارتياح، وتجد الفتيات
أنفسهن أمام القطار الشبيهة بالتنين الضخم ومكوناته من
الحديد الفولاذي الصلب، ولا يستطعن أن يجدن موطن قدم
لمشاهدته، وزبدة القول، أنه بعد إدراج محطة «تاي أرقو» في

جدول مواعيد القطارات، فإن كل قطار يقف دقيقة واحدة في هذه القرية، حيث ينطلق في الثامنة مساء كل يوم من العاصمة متجها صوب مقاطعة شانشي.

وهذه الدقيقة القصيرة تبدد سكون قرية «تاي أرقو» الذي عهدته في الماضي. وكان أهالي القرية قد اعتادوا دائما - فيما مضى - على الخلود إلى النوم بعد طعام العشاء، كأنما ينصاعون إلى أوامر الجبل التي يصدرها بلا ضجة في آن واحد، ثم تشهد بيوت القرية الحجرية الصغيرة الهدوء على حين غرة، وفي اللحظة نفسها تفرق في السكون العميق والحقيقي على هذا النحو، كأنها تسرد قصة ورعها وتقواها للجبل الضخم في تودة وأناة. واليوم، الفتيات في هذه القرية يحملن الطعام إلى الطاولة توا، ثم تصيبهن الحيرة والارتباك، ويتناولن ما تيسر من الطعام وهن شاردات اللب، ويلقن سلطانيات الطعام جانبا ويشعرن في ارتداء الثياب الأنيقة. ويغلسن وجوههن المتوردة غليظة القسمات التي تعرضت للتراب الأصفر والغبار طوال اليوم، ويمشطن شعرهن الفاحم اللماع، ثم يتسابقن في ارتداء أجمل اللباس. ويلبس بعضهن الأحذية الجديدة المخصصة للاحتفال برأس السنة، ويطلن بعضهن وجوههن بمساحيق التجميل. وعلى الرغم من أن القطار عندما يصل إلى المحطة يكون الليل أرخى سدوله على القرية، بيد أنهن ينخرطن ويفكرن مليا في الكساء والحلي وملامحهن، ثم يهرولن إلى مدخل القرية والأمكنة التي يمر بها القطار. وكانت الفتاة شيانغ شيويه - دائما - أول من تغادر بيتها وتسرع إلى هناك،

ثم تتبعها جارتها وتدعى فنغ جياو.

وفي الساعة السابعة، يلهث القطار ويسرع الخطى متجها ناحية قرية «تاي أرقو»، ثم تفرقع عجلاته وتزار صفارته في الفضاء بصورة عشوائية، وتهتز أركان عرباته حتى يقف ويتسمر في مكانه. وتتدفق الفتيات نحو الأمام وقلوبهن تقفز بين ضلوعهن على غرار مشاهدة فيلم سينمائي، ويقفن بجوار النافذة للفرجة والانتظار. أما شيانغ شيويه، فكانت الفتاة الوحيدة التي تقبع في الخلف، وتسد أذنيها بيديها بإحكام شديد، وتهرول إلى صدارة الصف عندما ترى القطار، ولكنها تنكمش وتتقهقر إلى الخلف عندما يأتي القطار، وتنتابها مشاعر الخوف جراء القاطرة الضخمة المفعمة بالقوة والحيوية، وتنفث الدخان الأبيض كأنها تلتهم القرية في بطنها في نفس واحد. كما أن زئير القاطرة الذي يهز السماء والأرض جعلها تشعر بالخوف أيضا. وعندما تقف أمام القاطرة كانت دائما مثل عشب صغيرة تفتقر إلى الجذور.

الفتاة فنغ جياو تسحب شيانغ شيويه وتشير إلى امرأة في القطار رأسها مرصع بحلقات ذهبية، وتقول: «يا شيانغ شيويه، تعالي هنا، انظري!».

تنظر شيانغ شيويه بعينين نصف مغمضتين قليلا، وتقول: «كيف لا أرى؟».

فنغ جياو تكتشف شيئا جديدا، وتقول: «إنها المرأة التي تجلس في الداخل، تلك المرأة ذات الوجه الكبير البضاوي. انظري، وفي يدها ساعة أصغر من غطاء الظفر».

لم تنبس شيانغ شيويه ببنت شفة وتطأطئ رأسها. وأخيرا، رأت تلك المرأة التي ترصع رأسها بحلقات ذهبية، وفي معصمها ساعة يد أصغر من غطاء الظفر أيضا. ولكن سرعان ما اكتشفت أشياء جديدة أخرى. اكتشفت «حقيبة مدرسية جلدية»، وتشير إلى حقيبة مدرسية عادية مصنوعة من الجلد الأسمر الاصطناعي. وهذا النوع من حقائب الطلاب يظهر للعيان جليا في أي مكان في المدن الصغرى.

وعلى الرغم من أن اكتشاف شيانغ شيويه لم يحظ باهتمام الفتيات دائما، بيد أنهن يحضرن ويلتفضن حولها.

تصدر فنج جياو صرخة حادة وتلقي باللائمة على فتاة تتزاحم بحثا عن موطئ قدم، قائلة: «آه، دست على رجلي!»، حيث إنها تحب الصراخ دائما عندما تخاف.

لا تبدي الفتاة الملوثة ضعفا، وتقول: «علام هذا الصراخ، أتريدون جذب انتباه صاحب الوجه الأبيض الصغير، وتدخلين في الحديث معه؟».

تسبها فنج جياو، وتقول: «أقطع لسانك!»، ولكن عينها بصورة غير إرادية ترقب باب عربة الركاب الثالثة.

عامل القطار الشاب صاحب البشرة البيضاء ينزل فعلا من الباب. وقامته عالية، وشعره أسود فاحم، ويتفوه بكلمات معسولة من لهجة بكين. وربما جعل ذلك الفتيات يطلقن عليه سرا لقب «لهجة بكين». العامل الشاب يحمل مرفقيه بين يديه، ويقف ليس بعيدا ولا قريبا من الفتيات، ويقول: «هيه، أيتها الفتيات الصغيرات لا تمسكن بالنوافذ درءا للخطر!».

فنغ جيا وترد إليه الجميل، قائلة: «آه، نحن صغيرات، وأنت عجوز، أليس كذلك؟».

تنفجر الفتيات في نوبة من الضحك والقهقهة، ولا نعرف من هي الفتاة التي دفعت فنغ جياو بعنف إلى الأمام، وكادت تصطدم بالعامل الشاب. وعزز ذلك - في المقام الأول - جسارة فنغ جياو بشكل أكبر، وبادرت به بالسؤال التالي: «هيه، تمكث كثيرا في القطار، ألا تشعر بالدوار؟».

وتشير فتاة أخرى إلى مروحة في عربة الركاب، وتسأله أيضا: «ما فائدة ذلك الشيء المعلق في سقف العربة ويشبه لقمة الأداة القاطعة؟».

«وأين تغلي الماء؟».

«وماذا تفعل إذا قادتك عجلات القطار إلى مكان بلا قضبان؟».

شيانغ شيويه تقتفي أثر الفتيات في الخلف وتسال العامل بصوت خفيض قائلة: تتناول كم وجبة طعام في اليوم الواحد في مدينتكم؟».

العامل الشاب يقع في شرك شبكة الفتيات، ويهمهم وهو في غاية الحرج والارتباك، قائلا: «فتيات حسناوات حقًا».

القطار ينطلق حالا، وأنداك تفسح الفتيات الطريق أمام العامل الشاب ويطلقن سراحه. ينظر في ساعته تارة، وتارة أخرى يهرول نحو باب العربة حتى وصل إلى المدخل، ويلتفت إليهن مرة أخرى، ويقول: «المرة القادمة أخبركم، المرة القادمة!».

ويصعد إلى العربة بمهارة بفضل خطوات ساقيه الطويلتين، ثم نسمع جلبة أصوات متقطعة وهمهمة وقعقة العجلات، وأبواب

القطار الخضراء توصل ببطء شديد أمام الفتيات. القاطرة
تخترق الظلام وتقضي وراءها الفتيات على جانبي القضبان
الباردة. ولاتزال الفتيات - بعد فترة طويلة - يستطعن
الإحساس بحركة القاطرة التي تسير بسرعة أكثر فأكثر.

كل شيء يسترد هدوءه وسكونه، الهدوء الذي يجعل المرء يشعر
بأنه فاقده الهمة. تعود الفتيات أدراجهن إلى بيوتهن، ويحتدم
النقاش بينهن ولا يعرفن طعم الراحة على طول الطريق جراء
مناقشة سفائف الأمور:

«من يعرف عدد الحلقات الذهبية التي شبكتها تلك المرأة في
رأسها؟».

«ثمانى حلقات».

«تسع حلقات».

«كلا!».

«بالتأكيد تسع حلقات!».

«فنفج جياو، أنت تجيبين عن السؤال؟».

تنكت إحدى الفتيات على فنغ جياو، وتقول: «هي! ما زالت
تفكر في العامل الشاب صاحب الكلمات المعسولة في «لهجة
بكين»!».

تنبري فنغ جياو قائلة: «اذهبي إلى الجحيم، يحلم بهذا
الشاب من يتفوه بمثل تلك الكلمات»، ثم تقبض بشدة على يد
شيانغ شيويه في إشارة إلى أنها تطلب مساعدتها.

تلتزم شيانغ شيويه بالصمت، وتشعر بالارتباك، وتعلو
وجهها أمارات الحمرة. إنها في السابعة عشرة من عمرها

فقط، ولم تتعلم بعد كيفية مد يد المساعدة والعون للآخرين
في معالجة مثل هذه الأمور.

لاتزال تلك الفتاة تداعب فنغ جياو، وتقول: «وجهه ناصع
البياض حقاً».

وتقول فتاة قابعة في الظلال السوداء: «بشرته بيضاء لأنه
يختفي داخل تلك العربة الخضراء الكبيرة. ندعوه للإقامة في
قريتنا بضعة أيام، ونرى ما يحدث لبشرته».

«لا يمكن، أهالي الحضر يعتمدون على الانزواء. وإذا أردنا
مناقشة البشرة البيضاء، نطلب عقد مقارنة بينهم وبين
فتاتنا شيانغ شيويه. بشرة شيانغ جميلة بالفطرة. خصوصاً
عند مقارنتها ببشرة الفتيات اللواتي يركبن القطار ويجعدن
شعورهن لتصبح ملفوفة ملتوية، نجد تعليقات كثيرة بعدم
التحبيذ!» شيانغ شيويه رائعة الجمال حقاً! الأخت الكبرى
فنغ جياو، ما رأيك، أليس كذلك؟».

فنغ جياو لا تقبل كلامها وتحرر يد شيانغ من قبضتها.
ويبدو أن الفتيات يقللن من قدر شخص ينتمي إليها، وتشعر
- بالإنباة عنه - بالسخط عليهن في سويداء قلبها حقاً.
ولا تدري كيفية معالجة هذا الأمر، وتجزم أن بشرة وجهه بيضاء
بالفطرة، وليس جراء الاختفاء والانزواء إطلاقاً.

الفتاة شيانغ شيويه تمد يدها رويداً رويداً إلى بطن راحة فنغ
جياو، إيعازاً للأخيرة بأن تقبض بإحكام على يدها، كأنها تطلب
منها الصفع لأنها ظلمتها وسببت لها مشاكل.
لاتزال تلك الفتاة تقول: «يا فنغ جياو، أنت بكماء؟».

تقول فنغ جياو بلهجة غليظة: «من البكماء؟! الأباكم هو من يكون مثلكم يركز نظراته على الوجوه البيضاء والوجوه السمراء للآخرين. أنتن تحبُون وتستطعن اقتفاء أثر الآخرين!». «نحن لا نقترن بهؤلاء الأناس!».

«الشخص الذي تعلقين عليه الأمل ليس صديقا حميما، ولا تربطكما علاقة غرامية، أليس كذلك؟».

وتفترق الفتيات في جو مفعم بالود والصدقة بغض النظر عن الشجار حامي الوطيس بينهما طوال الطريق، وذلك لأن الفكرة التي تجعل كل فتاة بالغة التأثر تلمع في قلبها، وهي القطار يمر هنا غدا، والفتيات يتمتعن بدقيقة رائعة، والمقارنة بين الشجار ورؤية القطار، هل يعتبر حدوث بعض الجلبة والقليل من المفاجأة أمرا جديا؟

آه، دقيقة تشرق بالبهجة والعظمة، تجعل نفسك مملوءة بالأفراح والأتراح، والسعادة والتعاسة تجاه الفتيات في قرية «تاي أرقو»!

ومع تقادم الزمن، أصبحت هذه الدقيقة أكثر بهجة وسعادة، ولا تتوقع الفتيات ذلك، حيث يحملن السلال المستطيلة التي تشبه أغصان الصفصاف بأذرعهن، واللال مملوءة بالجوز، والبيض، والبلح الصيني الكبير، ويقضن أسفل نوافذ القطار، ويقضين الوقت في المتاجرة مع ركاب القطار بطريقة مهذبة ولطيفة. كما يقضن على رؤوس أصابعهن، ويمددن أذرعهن عاليا، ويرفعن سلال البيض والبلح الأحمر إلى النوافذ، لمقايضتها بالأشياء التي قلما توجد في قرية «تاي أرقو» من الشعرية

الجافة، وأعواد الثقاب، فضلا عن الأشياء الخاصة بالفتيات من دبابيس الشعر، والصابون. وفي بعض الأحيان، تواجه بعض الفتيات المعاناة من التعرض للسب والشتم عندما يرجعن إلى منازلهن، ويتاجرن في المناديل الشاش المتعددة الألوان والأشكال، وجوارب النيلون المحبوكة والمرنة.

ويبدو أن الفتاة فنغ جياو عنيت عن قصد من قبل الفتيات للمتاجرة مع العامل الشاب الذي يطلق عليه «لهجة بكين»، وكل مرة تحمل السلة وتذهب إليه، ويقومان بالبيع والشراء ببطء وتثاقل شديدين عن قصد أيضا. وعندما يوشك القطار على الانطلاق تعطيه سلة البيض. وإذا تعجل وأخذ البيض وغادر القرية، فإنه يدفع ثمنه عندما يلتقيان في المرة المقبلة. ويحمل ذلك في طياته معنى كافيا بصورة أكبر. وإذا قدم إليها حزمة من الشعرية الجافة ومنديلين من الشاش، فإن فنغ جياو بالتأكيد تخرج نصف كيلو جرام من الشعرية وتعيده إليه. وتشعر بأن تصرفها على هذا النحو هو الطريقة الوحيدة التي تجعلها لا تقصر في تعاملاتها معه، وترغب في مثل تلك العلاقات التي تختلف عن ممارسة التجارة بصفة عامة. ويجول بخاطرها أحيانا كلمات الفتيات: «الشخص الذي تعلقين عليه الأمل ليس صديقا حميما ولا تربطكما علاقة غرامية، أليس كذلك؟». وفي الواقع، هي لا يعنيها إذا كان الصديق الحميم موجودا أو لا؟ فهي لم تفكر البتة في الزواج منه. ولكنها ترغب في معاملته معاملة حسنة. أليس من اللازم أن يعاملها الصديق الحميم الكفو بمثل تلك المعاملة؟

الفتاة شيانغ شيويه عادة لا تتحدث كثيرا، وهي متخوفة متهيبة أيضا، ولكنها من الفتيات اللاتي يشتغلن بالتجارة بلا أي عائق أو تعكير. ويحب الركاب شراء السلع التي في جعبتها، لأنها ترمقك بكل ثقة على هذا النحو، وتخبرك عيناها الصافيتان مثل البللور أن الطفلة التي تقف أسفل نافذة القطار لا تعرف أبدا الغش والخداع، كما لا تعرف كيفية المساومة، ولسان حالها يردد فقط: «انظر إلى السلعة وادفع كما يتراءى لك». انظر إلى وجهها الصافي النقي كأنه ولد توا قبل دقيقة، وانظر إلى شفاهها الغضة التي تشبه حرير الساتان الأحمر، وتنبثق من قلبها الشاعر الجميلة الرائعة، ولا يطاوعك قلبك أن تحاول التنصل من المسؤولية أمام هذه الفتاة، والأشخاص المدققون في الحساب وتقييم الأشياء يصبحون أمامها من ذوي الكرم والسخاء.

وكانت الفتاة شيانغ شيويه - بين الحين والحين - تقبض على تلايب الوقت وتتقصى من ركاب القطار ماهية الأحوال خارج القرية، وتسألهم إذا كانت جامعة بكين ترغب في أن يلتحق بها أبناء قرية «تاي أرقو» أو لا، وتستفسر عما يطلق عليه «الموسيقى المرفقة لإنشاد الشعر» (قرأت ذلك بالمصادفة في كتاب فوق الطاولة المشتركة). وذات مرة، سألت امرأة في أواسط العمر وتلبس نظارة، عن مقلمة تفتح وتغلق أتوماتيكيا، كما سألت عن ثمنها. ولا يدور بخلد أحد أن القطار لا ينتظر أن تتلقى إجابة من الركاب ويطلق العنان لعجلاته، وتهرول وراءه إلى مكان ناء، ولم تدرك الكف عن الهرولة إلا عندما دوى في أذنيها زئير ريح

الخريف وقععات عجلات القطار في آن واحد . وكم كان سلوكها هذا مضحكا ومثيرا للسخرية!

القطار لم يبد له أثر في طرفة عين . تلتف الفتيات حول شيانغ شيويه، ويشعرن بالغبطة عندما يعرفن السبب الذي جعل شيانغ تهرول وراء القطار وملاحقته .
«فتاة حمقاء!».

«أمر لا يستحق!».

شيانغ شيويه لا تقرأ أنه بسبب موضوع تافه، تلقي باللائمة على نفسها لأنها لم تقتنص الوقت، وتقول: «ألوم نفسي، تباطأت وسألت ببطء».

تحمل فنغ جياو السلة بدلا من شيانغ شيويه، وتقول: «هه، كان سؤالك معقولا!».

وتقول إحدى الفتيات دفاعا عن شيانغ شيويه: «من الذي قال إن فتاتنا شيانغ شيويه طالبة؟».

ومردود هذا الكلام يرجع إلى أن شيانغ شيويه طالبة، وكانت الوحيدة في القرية التي اجتازت الامتحان والتحقت بالمدرسة الإعدادية.

قرية «تاي أرقو» تفتقر إلى المدارس . وتذهب شيانغ شيويه إلى المدرسة كل يوم في كومونة تبعد عن القرية بنحو سبعة كيلو مترات . وتتجاذب أطراف الحديث دائما مع الأخوات في القرية على الرغم من أنها لا ترغب في الكلام . والمدرسة الإعدادية في الكومونة لا تضم الكثير من الأخوات، وعلى الرغم من أن عدد الطالبات ليس قليلا، ولكن سلوكهن وكلامهن، وتعابير عيونهن،

وضحكاتهن الخفية تبدو كأنها تجعل شيانغ تدرك أنها أتت من قرية صغيرة وفقيرة. ويتعمدن سؤالها مرارا وتكرارا: «أنتم في القرية تتناولون كم وجبة في اليوم؟»، ولا تعي شيانغ غرضهن وتجيب بجدية: «نتناول وجبتين»، ثم ترمقهن بنظرات حميمة وودية وترد على سؤالهن بسؤال: «وأنتم؟».

تجيب الطالبات في كل مرة بثقة وشجاعة: «ثلاث وجبات!» ثم لا يظهرن شعورهن من الشفقة والغضب إزاء بلادة شيانغ وفهمها البطيء.

كما تسأل الطالبات شيانغ: «تذهبن إلى المدرسة، ولماذا ليس معك مقلمة؟».

تشير شيانغ شيويه إلى زاوية الطاولة، وتقول: «أليست هذه مقلمة؟».

في الواقع، تعرف الطالبات مسبقا أن المقلمة الخشبية الصغيرة فوق زاوية الطاولة هي مقلمة شيانغ، ومع ذلك يتظاهرن بالدهشة، وكلما حان الوقت المحدد، تلهو شيانغ بمقلمتها الكبيرة المصنوعة من البلاستيك الزيدي (الرغوي) والموجودة فوق الطاولة المشتركة وتحدث طقطقة مدوية. إنها مقلمة تستطيع أن تقفل أتوماتيكيا. وأدركت شيانغ - بعد فترة طويلة - أن السبب الذي يجعل المقلمة تغلق أتوماتيكيا أنها تحتوي على مغناطيس ليس كبيرا ولا صغيرا. ومقلمة شيانغ الخشبية الصغيرة صنعها أبوها النجار خصيصا من أجلها بعد أن نجحت في امتحان الالتحاق بالمدرسة الإعدادية، وتعتبر فريدة لا مثيل لها في قرية «تاي أرقو»، ولكن مقارنتها بمقلمة

الطاولة المشتركة هنا، لماذا تبدو بليدة وبالية؟ وعندما تحدث
طقطة تتقلص خوفا وخجلا في زاوية الطاولة.

قلب شيانغ شيويه لم يعد قادرا على الهدوء مرة أخرى،
كانها أدركت على غرة مغزى الأسئلة المتكررة من قبل أترابها في
المدرسة. كما أدركت أن قرية «تاي أرهو» فقيرة جدا. وأدركت - في
المقام الأول - أن ذلك ليس جديرا بالاحترام، حيث إن رفقاء
الدراسة يتحلون بالجرأة على سؤالها مرة بعد مرة جراء الفقر.
ترمق شيانغ المقلمة فوق الطاولة المشتركة بنظرات محدقة
وتخمن أنها جاءت من مدينة كبيرة نائية، كما خمنت أن ثمنها
غير عادي ولا يستهان به بالتأكيد. هل يمكن الحصول عليها
مقايضة مقابل ثلاثين بيضة، أو أربعين أو خمسين؟ يفوص
قلبها في أعماقها آنذاك ولسان حالها يردد: كيف أفكر في مثل
هذه الأشياء؟ الأم تدخر البيض ليس من أجل أن نطلب منها أن
تطرح فكرة بصورة عشوائية! ولكن، لماذا مشهد صوت الطقطقة
الذي ينبثق من المقلمة مازال يدوي في أذني ولا ينتهي؟!

في ذروة الخريف يصبح النسيم الجبلي بردا لاذعا رويدا
رويدا، وتظلم السماء مبكرا يوما بعد يوم. ولكن الفتاة شيانغ
شيويه وأخواتها ينتظرن قطار الساعة السابعة في الوقت
المحدد. ويستطعن ارتداء السترات المحشوة بالقطن، وفنغ
جياو تشيك في رأسها دبوس الشعر الوردي الفاتح المصنوع من
بلكسيجلاس (Organic Class)، وذيل ضفيرة شعرها ملفوف
برباط مطاطي محشو بالحريز. وحصل فتيات القرية على
هذه الأشياء مقابل مقايضة البيض والجوز مع ركاب القطار.

ويتهذبون ويتزينون على غرار الفتيات اللاتي يركبن القطار، ويصطفون بصورة منتظمة على جانبي السكة الحديد مثل من يترقب الترحيب بضيف عزيز قادم من مكان بعيد، أو مثل الاستعداد لقبول الاستعراض من قبل الآخرين.

القطار يقف ويصدر تنهيدة طويلة وعميقة كأنه يشتهي من برد قرية «تاي أرقو». واليوم يبدي عدم اكتراثه القليل تجاه هذه القرية، نوافذ القطار موصدة كلها بإحكام، والركاب - في ضوء صاحب هزيل - يحتسون الشاي ويقرأون الجرائد، ولا يلقي أحد نظرة خاطفة خارج النافذة. ويبدو أن هؤلاء الأناس الذين أصبحوا مألوفين واعتادوا ركوب هذا الخط الحديدي قد نسوا فتيات هذه القرية.

تهرول فنغ جياو - كالعادة - إلى عربة الركاب الثالثة وتبحث عن زيونها العامل الشاب المعروف بـ «لهجة بكين». أما الفتاة شيانغ شيوه تربط رأسها بشال أحمر أرجواني بإحكام شديد، وتبدل السلة ذات الذراع المقوسة من يد إلى أخرى، وتهرول بلا توقف على امتداد القطار الرابض في المحطة. ووقفت عالياً على أقصى أطراف أصابعها أملاً أن يرى وجهها ركاب العربة. ولم يكتشف أحد في القطار وجودها، ولكنها عثرت على شيء تتوق إليه منذ ربح طویل فوق طاولة صغيرة تكتظ بالمواد الغذائية. واكتشاف ذلك الشيء جعلها لا تفكر في الهرولة نحو الأمام، وتضع السلة على الأرض، وتتسارع نبضات قلبها، وتتعلق بيديها في إطار النافذة بقوة، وترى بجلاء أن ذلك الشيء هو مقلمة حقاً، مقلمة أتوماتيكية تحتوي على حجر مغناطيسي.

شيانغ تقترب من المقلمة على هذا النحو، وتستطيع أن تلمسها إذا مدت يدها، وإذا لم يفصلها الزجاج عنها.

تأتي عاملة القطار الشابة وتجبر الفتاة شيانغ شيويه. شيانغ تحمل السلة بذراعها وتقف بعيدا، وتستمر في المراقبة. وعندما تأكدت شيانغ تماما أن المقلمة تخص الفتاة التي تتكئ على النافذة ومظهرها يدل على أنها طالبة، هرعت بحزم وطرقت الزجاج، الطالبة تدور وجهها وترى سلة شيانغ ذات الذراع المقوسة، وتقوم على استحياء بدفع شيانغ وتلوح بيدها معترضة في إشارة على أنها لا تفتح نافذة القطار إطلاقا. ولا تدري شيانغ السبب الذي جعلها تهرول صوب باب القطار، وعندما تسمرت قدمها أمام المدخل، مسكت الحاجز بقوة، ولا يزال يكتنفها قليل من التردد عندما كانت تبغي الهرولة، إذن، الرائحة العطرية النفاذة الدافئة التي تنبعث من العربة، ورائحة القطار الخاصة وطدنا أركان الثقة داخل نفسها، وتتعلم من حركات العامل الشاب المعروف بـ «لهجة بكين»، ووثبت ببراعة. الفتاة شيانغ تعترم القفز إلى داخل عربة القطار بأقصى سرعة، إنها تستغل أقصى سرعة في مقايضة البيض مقابل الحصول على المقلمة. وربما من أجل ذلك تستطيع اتخاذ قرار الصعود للعربة في غضون دقائق قليلة، لأن في جعبتها الكثير من البيض، لديها أربعون بيضة.

وأخيرا، بإقدام تصعد شيانغ شيويه على جسد القطار، وتشد السلة بقوة، وتخطو خطوة كبيرة نحو باب القطار بحرص شديد. وفي هذه الأثناء، تهتز عربات القطار فجأة، ثم توصلد

الأبواب. وعندما أدركت شيانغ ما يحدث أمام عينيها، كان القطار ودّع قرية «تاي أرقو» رويدا رويدا. وتنكب على باب القطار، وترى وجه فنغ جياو أسفل القطار في ومضة البرق. ومن الجلي أن ذلك ليس حلما، بل كل شيء حقيقة، لقد غادرت فعلا أخواتها، ويلتحم جسمها بالقطار المألوف لديها، وغير المألوف أيضا. وتضرب الزجاج بيدها، وتصرخ صوب فنغ جياو، وتقول: «يا فنغ جياو! ما العمل، ماذا أستطيع أن أفعل؟».

يحمل القطار شيانغ شيويه بلا هوادة، ويمرق فوق القضبان، ويخلف وراءه قرية «تاي أرقو» في لمحة بصر. والمحطة القادمة شانشي كو تنأى عن هذه القرية بخمسة عشر كيلو مترا.

وفي الواقع، أن مسافة خمسة عشر كيلو مترا ليست طويلة بالنسبة إلى القطار والسيارة. وعندما يتجاذب الركاب أطراف الحديث يكون القطار وصل إلى محطة شانشي كو، والركاب الذين يصعدون القطار في هذه المحطة ليسوا قلة، وينزل من عربته راكب واحد فقط، إنه الفتاة شيانغ شيويه، ولا توجد في ذراعها تلك السلة، فقد حشرتها أسفل مقعد تلك الطالبة.

الفتاة شيانغ - في القطار - تلو وجهها أمارات الحمرة، وعندما قررت أن تخبر الطالبة أنها تريد أن تقايضها بالبيض، وتحصل على المقلمة، كانت الطالبة لا تدري لماذا الحمرة تلو وجهها، وهي توافق أن تعطي شيانغ المقلمة بالتأكيد، وذكرت أنها تقيم في المدرسة وتأكّل في مطعمها، ولا تحتاج أن تأخذ البيض إلى هناك، وتخشى أن شيانغ لا تصدقها، ثم أشارت إلى الشارة المدرسية الموجودة على صدرها ومكتوب عليها: «كلية التعدين».

وعلى كل حال، تشعر شيانغ بأنها مازحت الطالبة ممازحة خسنة، أليس عندها بيت بالإضافة إلى المدرسة؟ شيانغ تلهو بالمقلمة تارة، وتارة أخرى تقدح زنادهنها أن قرية «تاي أرقو» أكثر فقرا، ولكنها لم تأخذ أشياء الآخرين من دون مقابل قط. وقبل أن يتوقف القطار وتهتز عرباته لمدة بضع دقائق، تحشر شيانغ السلة فجأة أسفل مقعد الطالبة، وتترك المكان بسرعة.

ركاب القطار ينصحون الفتاة شيانغ أن تقضي ليلة في محطة شانشي كو، ثم تعود إلى قرية «تاي أرقو». كما أخبرها الشاب العامل المعروف بـ «لهجة بكين»، وصاحب النخوة والحماسة أن أقارب زوجته يقطنون في هذه المحطة. شيانغ لم تمكث ليلة هناك، بل لم تعتزم الإقامة لدى أقارب هذا العامل الشاب، وكلماته جعلتها تشعر بأنها سببت مشاكل له، كما شعرت بأنها ظلمت فنغ جياو، وجارت على قريرتها. وفكرت من صميم قلبها أن تعود أدراجها مترجلة في أسرع وقت ممكن، وتذهب إلى المدرسة غدا بكل شجاعة وثقة، وتفتح «الحقيبة المدرسية» بكل جرأة ولا وجل وتضعها فوق الطاولة. والناس في القطار لا يدركون أن زئير القطار قد جعلها مثل الأيل الصغير الذي أصابته الدهشة، وأصبحت حائرة ومرتبكة. بل لا يدركون بشكل أكبر القوة العظيمة الكبيرة التي تتحلى بها طفلة تربت في أحضان الجبل أمام ذلك الجبل الضخم والليل حالك الظلمة.

ينطلق القطار من محطة شانشي كو ويتلاشى بسرعة، ويترك أمام الفتاة شيانغ مساحة فسيحة الأرجاء. تنقض الريح الباردة على شيانغ وتعصر جسمها النحيل. تلملم أطراف الشال

المتدلي على منكبيها وتريطه بإحكام فوق رأسها، ويتقلص جسمها فوق القضبان. وتعاني من المخاوف العديدة والمختلفة، فمنذ نعومة أظافرها تخاف من الشعر، وجسدها يلتصق به شعرة لا تستطيع التخلص منها، كما تنسال دموعها بسرعة. وعندما شبت عن الطوق، تخشى أن تجلس بمفردها في صحن الدار في المساء، وتخاف من اليسروع، وتخشى الدغدغة (كانت فغ جياو الأكثر حبا لاستعراض مهارتها في الدغدغة مع شيانغ شيوه). والآن تخشى شيانغ بلدة شانشي كو الغريبة بالنسبة إليها. وتخشى الجبال الضخمة القابعة في الظلام في الجهات الأربع، وتخاف من السكون الرهيب الذي يثير نبضات القلب، وعندما تهب الرياح على الغابة الصغيرة الواقعة في مكان قريب تنتابها المخاوف أيضا. كما تخاف من صوت حفيف الأشجار المنبعث من الغابة الصغيرة. وتجتاز الكثير من الغابات الكبيرة والصغيرة على امتداد الطريق الذي تقطعه عندما تعود أدراجها إلى دارها مترجلة!

يبزغ القمر في كامل استدارته، ويسطع ضوءه على الوادي الجبلي الهادئ. والطريق الرمادي الصغير يسطع نوره على الحشائش الذابلة أيام الخريف وجذور الأشجار الضخمة، بالإضافة إلى أجمة من الأشواك الجبلية، والصخور البارزة، فضلا عن أرتال من الأشجار التي تغص بها الجبال والسهول، وعلبة صغيرة تتلألأ وتلمع في يد الفتاة شيانغ.

في هذه الأثناء فقط، ترغب شيانغ في أن ترفع العلبة عاليا وتتفرس ملامحها بالتفصيل. وراحت تفكر لماذا تتركب القطار،

ولم يدر بخلدها أن تخرج من جعبتها العلبة وتمعن النظر في جمالها، أليس كذلك؟ والآن، وفي ضوء القمر الوضاء، تستطيع أن ترى بجلاء لونها الأخضر الفاتح، ومرسوم على غطائها زهرتان ناصعتا البياض من كستناء الماء واللوتس. وتفتح العلبة بحرص شديد، وتربتها بلطف شديد على الغطاء على غرار مقلمة الطاولة المشتركة، وتحدث «طققة»، ثم تغلقها إغلاقاً محكماً، ثم تفتح العلبة مرة أخرى، وتذكر أنه يجب أن تضع حالاً في العلبة بعض الأشياء داخلها. وتستل من جيبها علبة صغيرة بها زيت دهان الوجه وتضعها داخل المقلمة، ثم تغلقها مرة أخرى. وفي ذلك الحين، شعرت بأن المقلمة أصبحت ملكاً لها فعلاً. وراحت تفكر في الغد، وعندما تذهب إلى المدرسة غداً، تتوق إلى أن يسألها أترابها مرة تلو الأخرى!

تنهض الفتاة شيانغ واقفة، وتشعر بالرضا في سويداء قلبها فجأة. كما أصبحت الريح رقيقة ولطيفة إلى حد بعيد. ووجدت ضوء القمر الوضاء على هذا النحو، ونوره يخفي السلاسل الجبلية مثل صدر الأم المهيب المقدس. وريح الخريف تهب وتجفف أوراق أشجار الجوز التي تتلوى مثل الأشجار الذهبية وتصدح بالغناء وصوتها رنان في الليل وتشجعها الريح، وتستمع إليها شيانغ بوضوح للوهلة الأولى. لم تعد شيانغ تشعر بالخوف مرة أخرى، وتسير فوق عوارض السكة الحديدية بخطى واسعة وتتقدم إلى الأمام. تمشي شيانغ كأنها - للمرة الأولى - تتعرف إلى الوادي الجبلي الذي تربت فيه وكبرت وأصبحت بالغة، ولسان حالها يردد: «الجبل الضخم يبدو عملاقاً على هذا

النحو! والقمر الوضاء هكذا! وأشجار الجوز رائعة أصلاً! وأنت يا قرية «تاي أرقو» لا أعرف أحوالك الآن، وتسرع خطواتها على امتداد الطريق. ترى القرية بتلهف شديد وبشعور غريب لم تعرفه من قبل. والأحوال في القرية بالتأكيد على هذا النحو: لم تعد الصبايا في القرية في ذلك الحين يتوسلن إلى الآخرين، ولا توجد ثمة ضرورة للإجابة عن الأسئلة المتكررة التي تعتمل داخل نفوسهن، وتسعى الفتيات الحسنات في القطار إلى أبوابه، والقطار يقف طويلاً بعض الشيء، ربما لمدة ثلاث أو أربع دقائق، وربما ثماني أو تسع دقائق، وتفتح أبوابه ونوافذه أمام أهالي قرية «تاي أرقو». وإذا واجه المرء بالمصادفة مثل الأحوال التي وقعت مساء اليوم، فينزل من القطار بهدوء وأناة.

ماذا حدث في قرية «تاي أرقو» مساء ذلك اليوم؟ حسناً، القطار سحب شيانغ شيويه، فلماذا الآن تتذكر ركوبها القطار مثل اللهو بالدمية؟ ولم يعد في جعبتها أربعون بيضة، وماذا يكون رأي أمها؟ ألم يتق والدها كل يوم إلى من يتقدم ويخطب ابنته ويتزوجها؟ حينئذ، سيكون من همكا في عمل مستدام ويستطيع صقل ظهره مثل النحاس الوردي، ويعمل ليلاً ونهاراً ويصنع صناديق العرائس، وطاسات المطبخ، وصناديق خشبية، ويكسب المال من أجل النفقات الدراسية لابنته. وتسمرت أقدام شيانغ عندما جال بخاطرها مثل هذه الأمور. ويبدو ضوء القمر شاحباً، وأصبحت عوارض السكة الحديدية أسفل قدميها غير واضحة المعالم. ماذا تقول عندما تعود إلى منزلها؟ وتلفتت إلى السلاسل الجبلية حولها، فتجدها في صمت رهيب، وتجيل

نظرها صوب غابة أشجار الحور القريبة، فتسمع حفيف أوراقها يدوي في كافة البقاع، ولا تخبرها بنية صادقة ماذا يجب عليها أن تفعل. ومن أين يأتي صوت خرير الماء؟ وتبحث عن مصدر هذا الصوت، فتجده يأتي من نهير ضحل جدا يبعد بضعة أمتار عن القضبان. تمشي أسفل القضبان وتجلس القرفصاء على جانب النهير. وجال بخاطرها قبل أن تشب عن الطوق أنها ذات مرة كانت تغسل الملابس مع فنغ جياو على ضفة النهير، ورات بالمصادفة عجوزا يتجر في حلوى السمسم. وفنغ جياو تنصح شيانغ شيويه أن تأخذ سترة بالية وتقايضها مقابل الحصول على بضع قطع من هذه الحلوى، وأوعزت إليها أن تخبر أمها أنها عندما كانت تغسل هذه السترة لم تنتبه جيدا ودفعها التيار في النهر ونأت بعيدا. تتوق شيانغ شيويه إلى تناول حلوى السمسم، ولكنها لم تقايض السترة بالحلوى في نهاية المطاف. وتذكر أن ذلك العجوز انتظرها بكل صدق وإخلاص. ولماذا تتذكر مثل هذا الأمر البسيط؟ ربما الآن يجب أن تخدع أمها، لأن حلوى السمسم - على نحو من الأنحاء - لا يمكن مقارنتها بأهمية المقلمة. وتتطلع إلى أن تخبر أمها أن هذه العلبة الغالية من يستخدمها يستطيع أن يجد كل شيء كما يشتهي القلب، ويستطيع الالتحاق بالجامعة، يركب القطار ويذهب إلى أي مكان، ويجد كل ما يريده وتشتهي النفس، ولا يسأله الآخرون كم وجبة تتناولها صبايا قرية «تاي أرقو» كل يوم. والأم تصدق كلامها لأنها لم تخدع الآخرين قط.

يصدح النهير بالغناء بصوت عال، وتندفق مياهه وتندفع إلى

الأمام، وترتطم بالصخور، ويتطاير الرذاذ بين الحين والحين. شيانغ شيويه تسرع السير مرة أخرى، وتأخذ حفنة من ماء النهر وتغسل وجهها، وتلمع شعرها الذي بعثرته الريح بيدها المبللة بالماء. الماء بارد جدا، ولكنها تشعر بأن روحها المعنوية عالية. وتودع النهر، وتعود مرة ثانية للسير على السكة الحديد الطويلة جدا.

ماذا يوجد في الأمام؟ يوجد نفق يقف حائرا مذهولا، ويشبه العين السوداء للجبل الضخم. شيانغ شيويه تتسمر في مكانها، لكنها لا تعود إلى الوراء، وتفكر جيدا في المقلمة التي تحتضنها، وتفكر في نظرات الطالبات المدهشة العجيبة. إن تلك النظرات يبدو أنها تشرق وتتألأأ في جوف النفق. وتحني خصرها وتنزع عشب يابسة وتحشرها في ضفيرتها الصغيرة، فقد أخبرتها أمها أن ذلك يمكن أن «يطرد الشر». وبعد ذلك، تسرع في خطواتها صوب النفق، وتقول بكل وضوح إنها تندفع إلى الأمام بكل قوة. تشعر شيانغ شيويه بحرارة الجو كلما قطعت شوطا من الطريق، وتفك الشال وتربطه حول عنقها، ولا تعرف كم كيلو مترا قطعت مترجلة؟ ولكن هناك أصواتا يصدرها «الجندب الأمريكي» و«الجدجد الحقلي» وتثير انتباهها دائما. وأين قرية «تاي أرقو»؟ وتحملق بنظرها إلى الأمام وترى على مرمى البصر بقعا سوداء تتلوى فوق القضبان، تقترب قليلا من المشهد حتى ترى بوضوح هؤلاء الأناس، فتجدهم ثلة من الأشخاص يقبلون نحوها، وفنغ جياو في الصدارة، وخلفها الأخوات والشقيقات في قرية «تاي أرقو».

شيانغ شيويه تريد أن تسرع خطواتها قليلا، ولكن أقدامها لماذا أصبحت ثقيلة على غير العادة؟ تقف فوق العوارض الخشبية، وتدور رأسها نحو الخلف، وترى القضبان المستقيمة الممتدة على مرمى بصرها، القضبان تشع نورا جليا تحت توهج ضوء القمر، وتسجل بهدوء المسافة التي قطعتها شيانغ شيويه التي تشعر بالاضطراب في ذهنها بغتة، ولا تعرف لماذا تنفجر في البكاء؟ إنها دموع البهجة، إنها دموع الشعور بالرضا. ويبزغ في قلبها شعور بالفخر لم تعهده من قبل قبالة الجبل الضخم المهيب الجليل صاحب الأحضان الدافئة. شيانغ شيويه تكفكف دموعها بظهر يدها، وتنزع العشبة الصغيرة من ضفيرتها، ثم ترفع المقلمة، وتستقبل تلك الثلة من الفتيات اللاتي يقبلن نحوها.

تدوي صيحات الغبطة والسعادة من قبل الصبايا في الوادي الجبلي على حين غرة. ويصحن بصوت عال مرددات اسم «شيانغ شيويه»، وصوتهن يتدفق سريعا وحماسيا، والضحك يملأ أشداقهن، إنه الضحك الذي لا يعرف الخوف ولا يمكن إخفاؤه، والسلاسل الجبلية العتيقة تأثرت تأثرا بالغا واهتزت أركانها أخيرا، وينبثق منها صدى الصوت الخفيض العميق العريض البراق، وتهتف معهن بصورة مشتركة قائلة:
آه، أنت الفتاة شيانغ شيويه، شيانغ شيويه!!

من يستطيع أن يجعلني خجولة؟!

الزوجة تستخدم الهاتف بصورة مستمرة بعد أن تناولت طعام الإفطار، ولا تجلس على مقربة من الهاتف عند الاتصال، بل تأخذ ميكرفون الهاتف ذاهبة آية في الغرفة وتحدث في الهاتف، حيث يوجد هاتف لاسلكي في قاعة الضيوف. ويبدو أن هناك سببين بصورة رئيسية وراء تصرفها من تحريك أقدامها في الغرفة، والنظر صوب الشرق تارة، وناحية الغرب تارة أخرى، أولهما أنها تستطيع أن تلقي نظرة خاطفة. كما تشاء. على هذه الشقة الجديدة المستنيرة التي مساحتها ليست صغيرة، وترى هل ينقصها شيء؟ وهل يوجد بها ما لا يسر الناظر إليها؟ أو بعبارة أخرى، هل الشقة كاملة ولا تحتاج إلى شيء، وقتلذذ العين بالنظر إليها. أما السبب الثاني، فهو - فيما يبدو - تقليد الممثلين في الأفلام الأجنبية وهم يتصلون هاتفا، لاسيما تلك الممثلات البطولات اللواتي يأخذن معظمهن الهاتف وتملأن الغرفة حركات عشوائية، عندما يتصلن أو يستقبلن مكالمات هاتفية، فيتمايلن سلك الهاتف الطويل جدا أمام أقدامهن أو خلفهن، ولا يظهرن التكلف، بالإضافة إلى الرضا عن النفس وهن شاردات اللب. وفي تلك اللحظة، تشعر الزوجة بالرضا إلى حد

ما، ولكن لا ترغب في الاعتراف بذلك. كما تشعر بأن الرضا عن نفسها يعد نوعاً من الحالة النفسية المتهورة. وتشعر أيضاً بأن أحوالها النفسية أكثر مثالية عن الإحساس بالقناعة الذاتية، إنها زوجة دون الأربعين عاماً، إنها في سن يجمع بين طرفيه الرغبة المحمومة في التقليد، والرغبة المحمومة في الإبداع في آن واحد.

الزوجة التي تترجل في الشقة تندفع بسرعة إلى المطبخ، وتكتشف أن عبوة المياه المعدنية ذات اللون الأزرق الفاتح فوق مبرد مياه الشرب فارغة، وترى أنه يجب الاتصال هاتفياً بمحطة المياه، حيث إنها أنهت في التو المكاملة الهاتفية ذات المضمون الفارغ والتي تجريها حالياً. وشرعت في الاتصال برقم هاتف محطة المياه، ولكن لم تفلح في الاتصال، وميكرفون الهاتف يصدر - مراراً وتكراراً - صوتاً آلياً جافاً جامداً يقول: الرقم الذي طلبته غير موجود في الخدمة أو تم تغييره. مزاج الزوجة يتعكر صفوه بعض الشيء. فقد تسلمت بنفسها عبوة المياه المعدنية «تشنغ لين شان» (جبل الروح الصافية) عندما قام المصنع بتسويق إنتاجه حتى باب البيت. ومنذ بضعة أيام اتصلت الزوجة هاتفياً تطلب إرسال المياه المعدنية، فكيف يكون «الرقم الذي طلبته غير موجود؟» إذن، يكون الرقم «قد تغير»، أليس كذلك؟ وهذا كلام غير معقول. وإذا تغير رقم الهاتف فلماذا لا يخبر المصنع الزبائن، ألا يعرف أننا نحتسي المياه المعدنية كل يوم. تتصل الزوجة أيضاً بالرقم «١١٤» للاستفسار، وكان الرد: «الرقم الذي يستعلم عنه لم يدون في سجل الدليل»، الزوجة

تستشيط غضبا، وتتمتم وتغمغم بكلمات من هذا القبيل من رأس القلب مباشرة: «دكاكين فاشلة»، «دكاكين شريرة». وتذكرت في المرة السابقة أنها سمعت اقتراحا من الصبي الصغير الذي يرسل المياه المعدنية، أن الزوجة إذا اشترت منه عشرة كوبونات من المياه المعدنية تبلغ قيمتها مائة يوان صيني. وشعرت بأن ذلك مناسب آنذاك، حيث تعطي مرسل المياه كوبونا واحدا، ويوفر ذلك كثيرا من الجهد والتعب، عن الاستعداد مسبقا وتجهيز النقود في كل مرة. آه، عجيب... إنها خدعة من الصبية الصغار الذين يعملون في محطة المياه، والذين خدعوا في مرة واحدة جميع الأسر واستولوا على نقودها، ثم اختفوا من هذه المدينة. الزوجة تفكر مليا في الأمر، وتفتح درجا صغيرا بجوار ظهر الموقد، وتأخذ دفتر كوبونات المياه الذي تبلغ قيمته مائة يوان، وحجمه أصغر من ورق الكوتشينة... أجل، إذا كان رقم هاتف محطة المياه موجودا، فإن الدفتر يستحق النقود ولا يصبح رزمة من «الورق المهمل». وفي تلك الأثناء ترى الزوجة على «الورق المهمل» كلمات مطبوعة بجلاء تشمل عنوان محطة إرسال المياه المعدنية «تشنغ لين شان» مطبوعا بوضوح على النحو التالي: هذه المدينة، منطقة ما، شارع كيت وكيت، رقم...، وهناك مقر دائم لمحطة المياه، وكيف لم يلفت انتباه الزوجة منذ زمن بعيد العنوان المكتوب على كوبون المياه؟ وبالتأكيد قد يبدو العنوان غير مهم عندما تتصل هاتفيا بالطرف الآخر وتطلب منه أن يقوم على خدمتك، لكن العنوان بات مهما في تلك اللحظة. وتقدر الزوجة المسافة من الحي الصغير الذي تقطن فيه إلى ذاك

العنوان، وترى أنها ليست بعيدة وليست قريبة في هذه المدينة ذات الحجم المتوسط، حيث تبلغ مساحتها زهاء ستة كيلومترات تقريبا. وقررت الزوجة البحث عن محطة المياه المعدنية وفق العنوان المطبوع على كوبون المياه. ربما من أجل مائة يوان صيني دفعتها (يدور في خلدنا أن هذه النقود أصبحت مفقودة)، وربما ترى نفسها زبونة تعرضت للاحتيال والخداع، وفي جعبتها الأسباب التي تجعلها تعتقد ذلك. وهذا الشعور ليس غريبا، بالنسبة إليها إطلاقا، حيث تراودها دائما مشاعر متداخلة بأن الازدهار المبالغ في التجارة يفتقر إلى السمعة، والثراء لا يعتبر حياة مستقرة أبدا. وكل الوعود تحوم حولها الشكوك، ويشمل ذلك شركات تقديم الخدمات التي تتحمل مسؤولية إمدادات المياه الساخنة لمدة أربع وعشرين ساعة، لا تفي أبدا بوعداتها في البناءات، وتحرص على ذلك، حيث يرتدي رجال الأمن الزي الأزرق الغامض المنوط به الكتفية الذهبية والأشرطة الزيتية، ويلبسون البيريه الأشد حمرة من الخوخ، ويشكلون بين وقت وآخر فريقا يقوم بدوريات الحراسة أمام المبنى كأنما يمثل الأويرا. أمعقول الشغف بالمظاهر (الطاووسية) على هذا النحو لم يحقق رضا وقناعة الطرفين من شركات الخدمات وأرباب العمل؟ أمعقول لا تزال هناك أشياء غير كافية؟ أه، إنها الزوجة أقسى ما لا تتحمله أن ترى البيريه الصوفي الأحمر فوق رءوس رجال الأمن، لاسيما عندما تستخدم الماء الساخن وينقطع على غرة من الصنبور، وتأخذ منشفة الحمام بصورة عشوائية، وتلتف بها، وتتصل هاتفيا بغرفة الخدمات المناوبة، ويكون ردهم دائما:

«نأسف، سنقوم بإصلاح ماسورة الماء الساخن في التو». والزوجة لديها ثقة ثابتة وقتئذ بأن المناوب الذي استقبل مكالمتها الهاتفية بالتأكيد يميل فوق رأسه البيريه الصوفي الأحمر، ويتصنع الوقار، كما تحوم حوله الشبهات.

ومادامت الأمور على هذه الحال، فإن الزوجة تقدح زناد فكرها وتفكر مليا، ويفيض صدرها بالكآبة، وتتهندم في أحسن ثيابها، وتوصد باب البيت، وتركب المصعد وتنزل إلى أسفل البناية السكنية، وتقود السيارة، وتبحث عن محطة المياه التي من المحتمل أن تكون اندثرت من الوجود. وتعثر على الطريق «كيت وكيت» في المنطقة «الفلانية»، والذي كان في الأصل شارعا صغيرا قذرا ومزدحما ويغص بالضوضاء، وتتركز فيه أعداد غفيرة متراسة من الدكاكين والمحلات التي تبيع بالجملة أحدث المنتجات المحلية، والمقشّات، والجواريف، والماسح، وأوراق التواليت، والمنتجات التي يطلق عليها فولاذ لا يصدأ، وجودتها مشبوهة، مثل الأطباق، والسلطانيات، فضلا عن سكاكين المطبخ، والمقصات، والقذور الحديدية، والدلاء البلاستيكية... وتتدحرج تلك المنتجات مثل الأمواج على الأرصفة على جانبي الشارع الصغير. وتقبع المطاعم الصغيرة وسط هذا الزحام، وتأبى أن تشعر بالوحدة، وتكاد مواقدتها تتوسط قلب الشارع. والجوزة المسلوقة، الكبيرة المحشوة، والفطائر المبخرة الصغيرة المحشوة، والشعرية المسلوقة بالزيت - كل في قدره مشحون بالبخار، وتغري الشارع والمارة فيه بكل وسيلة، وحتى المياه القذرة تتدفق بسرعة في كل بقاع أديم الأرض الملطخ بالزيت. الزوجة تهدئ

سرعة السيارة، وتركز انتباهها على أرقام لوحة الأبواب، ويجول بخاطرهما أنه من السهل - بصفة خاصة - أن تقول إن أي دكان صغير أو «شركة» اختفت وتصبح غير موجودة فعلا هنا بسبب أن هذا الشارع الصغير يعج بالاستهتار والعبث والجلبة. وترى الزوجة الكلمات الثلاث «تشنغ لين شان»، حيث توجد لافتة معلقة على أسكفة باب الدكان ذي الواجهة الصغيرة وكتب عليها بالحروف الكبيرة «الشركة الفرعية للمياه المعدنية تشنغ لين شان في شارع كيت وكيت»، ومغمورة في خضم رائحة البخار والزيت المنبعث من الفطائر الصغيرة المحشوة والشعرية المسلوقة بالزيت، مما يدل على أن وجود الشركة لا يمكن إنكاره. توقف الزوجة السيارة على جانب الطريق وتدلف إلى محطة المياه، وتتلافى الماء القدر الذي يتلوى على الأرض. وفي غرفة يتراكم الماء داخلها مثل الجردل، ترى ذاك الصبي الصغير، الذي أحضر لها المياه المعدنية في المرة السابقة، مع اثنين من أترابه يلتفون حول طاولة ذات درجين، ويحمل كل واحد منهم سلطانية في يده مصنوعة من الخزف الأزرق وأكبر من رأسه قليلا ويأكل الشعرية المسلوقة بالزيت، وعندما يرى الزوجة تدخل الغرفة، يرفع رأسه من داخل السلطانية وتلتصق على صدغه قطعة من السبانخ لونها أخضر غامق.

الزوجة ليست قلقة، فمن الجلي أن محطة المياه المعدنية لم تخذعها، والعنوان المكتوب على كوبون المياه حقيقي، بالإضافة إلى أن الهاتف فوق زاوية الطاولة ذات الدرجين وتستخدم في تناول الشعرية تكسوه الأتربة. تنزع الزوجة قطعة السبانخ

الملتصقة بصدغ الصبي، ولا تعرف كيف تناديه. وفيما يبدو أنها لا تحسب أنه بلغ سن الرجولة، ولكن إذا نادته بـ «الطفل الصغير»، يحمل ذلك في طياته صبيانية مفرطة أصلا، فهو - على الأقل - ليس ولدا أجيرا. وماذا إذا نادته بـ «الصبي الصغير»؟ فذلك من الواضح ينطوي على التشجيع والإطراء، وهي لا تقصد ذلك إطلاقا. فهو لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، وملامحه تشبه الفأر إلى حد ما، وضعيف البنية بعض الشيء، وتجمع سحنته الخارجية ووجهه بين ملامح القرية والحضر، وبشرته قاتمة، إنه صبي يعاني من سوء التغذية. وفي الواقع، لا حاجة إلى التفكير مليا في كيفية تسمية مثل تلك الشخصية، وهل توجد ضرورة لذلك؟ وتقول الزوجة للصبي: «آ»، «أنت». وذكرت أنها وجهت إليه بعضا من كلمات الزجر والاستهجان، وشجبت محطة المياه لأنها غيرت أرقام الهواتف ولم تخبر الزئائن. ويوضح الصبي ذلك قائلا: ذاك الرقم الهاتفي استعرقته من أحد الأشخاص منذ زمن بعيد، وفي الوقت الحاضر لا يسمح لنا باستخدامه، واضطر صاحب الشركة إلى أن يقدم عريضة يطلب فيها رقما جديدا. ويقول صاحب الشركة يمكن الانتهاء من إجراءات الرقم الجديد في أسرع وقت. ويردف في صوت مبهم وغامض، ويقول للزوجة بعض الجمل التي تنم عن الاعتذار مثل: «أسأنا الخدمة إليكم فعلا»، كأنما مازال تعوزه المهارة في الاستفادة مما تعلمه في المدينة. الزوجة عيل صبرها وتستمع إلى اعتذاره، وتقول له أنت ترسل إلى بيتي المياه المعدنية، أليس كذلك؟ من فضلك أرسل إلى عبوة المياه المعدنية في الساعة الثالثة بعد الظهر. وعنواني

في دفتر تسجيل الزبائن لديكم. ويوافق الصبي في اهتمام شديد ويقول إنه يعرف عنوان الزوجة، وهو: منتزه خوبينغ يا (شاطئ البحيرة)، المبنى الخامس، رقم «٨٠١». تضحك الزوجة من أعماقها، وهي لا تضحك على ذاكرة ذاك الصبي الصائبة، بل تذكرت أن هذه المدينة أصلا تفتقر إلى البحيرات. ويصرون على تسمية المنطقة الصغيرة التي تقطن فيها «منتزه شاطئ البحيرة»، وفي فترة وجيزة اندمجت هذه المنطقة الصغيرة مع نظيرتها لأرياب الأعمال، وأصبحتا تتسمان ببعض مظاهر الصداقة المزيفة والمودة الكاذبة، فضلا عن بعض الخداع والخوف، أليس كذلك؟ وتزهو الزوجة بنفسها لأنها في لحظة بصر أصبحت تتمتع بالتهكم الذاتي، والأشخاص من ذوي القدرة على التهكم الذاتي هم أولئك الذين يتبأون موقع المبادرة والمبادأة في الحياة. الصبي يتابع الزوجة بعينه، وهي تقود السيارة وتناى بعيدا، ويركز اهتمامه بصفة خاصة على سيارتها البيضاء. ولا يعرف ماركة هذه السيارة، ولكن ربما ذلك ليس مهما، بل المهم أن الزوجة التي تقود السيارة تحضر إلى هذه المحطة التي هي عبارة عن غرفة صغيرة متصدعة وبالية. وتجلب معها النسمة، والرائحة الذكية، والهواء الدافئ وتقف هنا، لقد حضرت إلى محطة المياه، وتتجه إليه مباشرة، وتتجه إليه مباشرة فعلا. تشعر بالغضب إلى حد ما، ولكن كلماتها لم تتجاوز حدود اللياقة، وأشارت إليه أن يحضر إليها المياه المعدنية. وترتدي الأزياء الراقية حقا، ولا يملك الصبي في جعبته الكلمات الكافية التي تصف رقيها ورونقها. الصبي يخفض رأسه ويتأمل ذاته، فهو أصلا في حالة

رثة، ويلبس الحذاء الرياضي من قماش مخملي من إنتاج مصنع الأحذية على مستوى المحافظة، وتخلله عدة ثقوب. يشعر الصبي بعدم الرضا تجاه ذاته، وتنتابه بعض مشاعر الغضب، ويتذكر مشهد إرسال المياه المعدنية للزوجة في المرة الأولى، بيد أنه لا يتذكر أشياء كثيرة بصورة رئيسية. ويتذكر فقط أن الشقة كبيرة جدا، لاسيما المطبخ، على وجه الخصوص، المطبخ واسع فعلا وتتجاوز مساحته أكبر غرفة في منزل عمته، الذي يعيش فيه، ويزاحم ابن عمته الكبير في غرفته الصغيرة التي تبلغ مساحتها ستة أمتار مربعة. ومطبخ الزوجة أكبر من ستة أمتار مربعة مرتين، والصبي لا يفهم لماذا يصرون على أن يكون المطبخ كبيرا على هذا النحو؟ لدرجة أنها تكفي لإدارة مطعم، فضلا عن أن حوض غسيل المواعين في المطبخ مفروش أمامه - على غير المتوقع - سجادة (طراحة لمنع الانزلاق)، ولم يكن في حسبانها أن هناك سجادة مفروشة! وجعلت ذاكرة الصبي تختزن أن الزوجة لديها طفل، ذاك الطفل الصغير ربما في يكون الخامسة من عمره، ويأخذ الهاتف النقال ويعتبره دمية يلهو بها، وعندما تطلب الزوجة منه أن يتخلى عن الهاتف النقال، يشعر بالحزن الشديد ويقول لها: لماذا أنا - دائما وأبدا - لا أستطيع أن ألهو بسرور وبهجة؟ لماذا أنا - دائما وأبدا - لا أستطيع أن أقضي وقتا ممتعا وجميلا كما أهوى؟! أريد الاتصال بالرقم «١١٠». ويترك هذا «الرقم»، وهذه «الغبطة والبهجة» انطبعا في نفس الصبي. وهذا الانطباع أكثر عمقا من نظيره المنبثق عن شقة الزوجة التي تدهش الأبصار. وعلى كل حال، إن تلك الشقة وجميع

محتوياتها تنأى كثيرا عن متناول الصبي، بيد أن ما تفوه به الطفل من السرور والبهجة جعل الصبي يشعر بالمتعة، فهو يفكر دائما في البهجة والغبطة في عدم إرسال المياه المعدنية إلى الزبائن، ويتطلع إلى البهجة والسعادة في المكوث بلا عمل. إن وزن عبوة المياه المعدنية يبلغ خمسين جينا (الجين = ٥٠٠ جرام)، ويكسب ثمانية ماوات فقط. وعندما يكون النشاط التجاري في أحسن حالاته، يرسل إلى الزبائن تسع عبوات في اليوم، ويكسب تسعة يوانات وماوين، ويطلب منه ابن عمته الكبير في الحال أن يدعوهم إلى تناول الكباب. وأجره في اليوم الواحد لا يكفي حتى لشراء عبوة مياه معدنية، ويدفع يوانين ثمنا لسلطانية الشعرية المسلوقة بالزيت، ويتناول في اليوم الواحد - على الأقل - سلطانيتين في المطعم، لأن بيت عمته غير مسؤول عن تقديم الطعام له. وفي بعض الأحيان، لاسيما عندما يطلب زبائن المياه المعدنية ويقيمون في الدور الخامس أو السادس، ويحمل على منكبيه المياه المعدنية ويصعد بها سلم البناية السكنية درجة تلو الأخرى، فإنه يشعر بالحزن والامتعاض في مناحي قلبه، ويتساءل: لماذا يصر هؤلاء الأشخاص على إنفاق الأموال ويحتسون المياه المعدنية، آه، إنها مياه نظيفة ونقية، ولماذا تحتوي مياه الأنابيب على سموم، لماذا تحتوي على سموم؟ من الأفضل أن تقتلهم السموم. وأفكار الصبي بلا حدود أحيانا. ولكنه يدرك أنه لا يستطيع أن «يقتلهم» بالسموم، وهم يتصلون هاتفيا بالرقم «١١٠»، ويبلغون البوليس. وعندما حضر إلى هذه المدينة بحثا عن أسباب الرزق منذ نصف عام، شرح له ابن عمته الكبير

فائدة الرقم «١١٠»، وأدرك من هنا أنه يستطيع الاتصال بهذا الرقم في أي وقت إذا تعرض لحالة طارئة في الخارج. والمشكلة أنه يجابه أحوالا طارئة، إن الحالة الطارئة الكبرى التي يواجهها هي الحاجة إلى النقود، والافتقار إلى النقود لا يمكن أن يجعله يشعر بالغبطة، وهل يستطيع الرقم «١١٠» أن يجعله يكسب نقودا. وعلى أي حال، الآن الصبي يستعد لإرسال المياه المعدنية إلى الزوجة القاطنة في منتزه خوبينغ يا، المبنى الخامس، رقم «٨٠١». وإذا لم يشرب هؤلاء الزبائن المياه المعدنية، فإنه حتى لا يستطيع أن يكسب تسعة يوانات وماوين في اليوم أيضا. وفي تلك الأثناء، ينكت عليه بالفاظ سوقية نفر من أترابه الذين كانوا يأكلون معه الشعرية منذ فترة قصيرة، ويسخرون منه قائلين زيونة جاءت تبحث عنك، زيونة جاءت لزيارتك، الزيونة تحبك، الزيونة مغرمة بك. وقلب الصبي قد يشهد ضربات خفيفة من جراء ذلك، ولا يستطيع أن يجد تفسيراً لمصدر تلك الضربات الغريبة في نهاية المطاف. والآن يدرك فقط أنه فيما يبدو يختلف عن سائر أترابه، ويشعر بالندم لأنه يجتمع معهم في محطة المياه، ويتناولون معا الشعرية المسلوقة بالزيت، ولماذا جعل الزوجة ترى في يده تلك سلطانية الشعرية التي تطفو فوقها قطع من السبانخ الذابلة؟ ولا يزال يشعر أنه من اللازم أن يبدل ملابسه.

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر، تسمع الزوجة جرس الباب، فتفتح الباب. يحمل الصبي عبوة المياه المعدنية على كتفه ويقف أمام الباب، وتبدو عليه أمارات الغرابة، والصبي مازال على حاله

كما كان، وتعرفت الزوجة على وجهه وملامحه. الزوجة تفحصه في لمح البصر، وتكتشف أن غرابة الصبي تنبثق من ثيابه المهنّدم، ففي الصباح لم تعر ملابساه اهتماما، حيث إن ملابساه وملامحه ومحطة المياه المكفّرة المظلمة تتكامل فيما بينها وتنصهر في بوتقة واحدة وتنسجم بصورة طبيعية، ومن يجد هناك ضرورة أن يركز اهتمامه على ملابس الصبي بصفة خاصة، والآن الصبي بدل ملابساه، ويرتدي الزي الغربي الذي يبدو - بالنسبة إليه - فضفاضاً بصورة مضرة، وجودة قماشه متدنية، ولم يخضع للتفصيل الدقيق والمتناسق، وأطرافه وحواشيه حادة، مما جعل رأسه - بالمقارنة - صغيرة بشكل أكبر، لدرجة جعلت الزوجة تشعر بأن الصبي لا يحمل على كتفه عبوة المياه، بل يحملها الزي الغربي. وتأذن الزوجة له بالدخول، ويعم الشقة فجأة صوت وقع قدمين ثقيلتين، وتحقق الزوجة في قدمي الصبي، فتجد أنه يلبس زوج أحذية جلدية كبيرة، وقعره صلب، بالإضافة إلى الجزء الآخر من ملابساه الجديدة. وتلفت انتباهه إلى أن يخلع حذاءه، بيد أنه يتظاهر بأنه لم يسمع كلامها، ويمضي يقرقع بقدميه الثقيلتين في الشقة متقدماً صوب الأمام، ثم يندفع إلى المطبخ، ورجلاً بنطاله الطويلتان بصورة مضرة، المطويتان ثنيتين، تتكومان على قماش الفرعة، وإذا نظرت فقط على الجزء السفلي من رجليه يبدو أن الصبي قد أرخى خصر البنطال وخلع بنطاله. ولم تصر الزوجة بعد على أن يخلع حذاءه، فإن خبرتها وتجاربها جعلتها تخمن أن قدمي ذاك الصبي من المحتمل أن تكون نتنة جداً مثل عمال شركة

الخدمات الذين يأتون لإصلاح المدفأة وأنابيب المياه، حيث تقوم كل مرة بفتح النوافذ وتجديد الهواء بعد أن ينصرفوا من البيت. إذن، لا يهم أن يخلع الصبي الحذاء، ومن الممكن ترك قدميه اللتنتين محشورتين في حذاءه الذي لم يفك رباطه حتى يغادر البيت. ويبدو أن الصبي غشيم في العمل بسبب ملابسه التي لا تتسق ولا تتناسب مع جسمه. ونسمع صوت حفيف الملابس يصدر من جسمه من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه. كما تصدر أصوات جلبة فض الغلاف البلاستيكي لعبوة المياه المعدنية. وأخيرا، عندما تأكد بوضوح من تجهيز العبوة ويريد أن يحملها ويركبها في مكانها في مبرد مياه الشرب، تقول الزوجة: انتظر، انتظر برهة.

يحرر الصبي عبوة المياه المعدنية من يده، ويدور جسمه، ويرى الزوجة ترفع في يدها قطعة من القطن الناصع البياض المبللة بالكحول. وتقول للصبي: أريد تطهير وتعقيم فتحة العبوة. ولا تقرب يدك مرة أخرى من هذه الفتحة.

يقول الصبي: إن العبوة تم إقفال فتحتها بإحكام شديد عند خروجها من المصنع.

تقول الزوجة: من أخبرك بذلك؟

يقول الصبي: أخبرنا بذلك صاحب المصنع.

الزوجة تزم شفيتها كرها، ولا تتردد البتة في مسح عبوة المياه المعدنية بقطعة القطن بقوة، كأن تصرفها هذا يخبر الصبي بأنها لا تصدق صاحب المصنع، ولا حتى المصنع، فيما يطلق عليه «الإغلاق المحكم». وقبل صباح اليوم، كانت لا تعتزم تطهير

المياه المعدنية، بيد أنه بعد صباح ذاك اليوم، تولدت لديها هذه الفكرة. أنها لا تلقي باللائمة - على وجه الخصوص - على إنشاء محطة المياه في ذاك الشارع الذي يعج بالفوضى والمياه الوسخة المتدفقة في كل جوانبه. وأنت هل تعتقد أن الأشياء التي تشتريها من السوبر ماركت الفخم الذي يتمتع بالنور المشرق والبيئة الهادئة، هل تعتقد أن الأشياء مصدرها يرجع إلى المكان المشرق والمستنير والبيئة النظيفة. والزوجة منتجة لإحدى برامج التلفاز، ومعرفتها بمثل تلك الأمور ليست قليلة. تحني خصرها وتمسح عبوة المياه المعدنية، وتقع نظراتها بصورة تلقائية جدا على اليدين المسبلتين للصبي الواقف بجوارها. أه، إنهما يدان قذرتان جدا، إنهما اليدان اللتان ترسلان المياه المعدنية للزبائن في كل الأمكنة، والتي يشربونها. الزوجة تنصب قامتها، وتذكر أن دفتر كوبونات المياه المعدنية في يدها، والذي قيمته مائة يوان بالتأكيد لا يمكن إرجاعه، وأنها سوف تغير الشركة بكل تأكيد بعد نفاذ ذاك الدفتر. إذن، يدا الصبي قذرتان أم لا، لا تمت إليها بصلة كبيرة بصورة أساسية، وذلك على غرار الملابس الغربية الفضفاضة التي يرتديها الصبي ولا تناسبه، والحداء الجلدي الكبير في قدميه لا يمت ذلك إليها بعلاقة أيضا. ولماذا الصبي يتصرف على هذا النحو، ويرتدي مثل تلك الملابس والحداء؟ إنها لا تهتم بذلك إطلاقا، وليس لديها متسع من الوقت للاهتمام بذلك. ففي المرة القادمة، ربما الشخص الذي يرسل المياه يرتدي ملابس غربية فضفاضة بشكل أكبر، ويدها أكثر قذارة.

انتهت الزوجة من عملية تطهير فتحة العبوة، وأوعزت إلى الصبي أن يركب العبوة في مبرد مياه الشرب، وانتزعت كوبون المياه وأعطته إياه. ولكن الصبي مازال واقفا لم يبرح مكانه. الصبي يتثاقل في سيره ولا يمشي لأنه كسير الضؤاد بعض الشيء. وهذه «الملابس» التي يرتديها هي البزة الرسمية لابن عمته الكبير، رجع خصيصا ظهر اليوم إلى بيت عمته وسرقها، اعتقادا منه أن هذه البزة تستطيع أن تجعله مؤهلا ومناسبا لإرسال المياه المعدنية بعد ظهر اليوم، والزوجة التي تدخل وتخرج يجب - من أجلها - أن يرتدي مثل هذه البزة، كما هو في هذه الحال الآن. ومن أجل ماذا أيضا؟ إنه يستغل مثل هذه البزة ليمحو الآثار الناجمة عن زيارة الزوجة لمحطة المياه في ذاك الصباح، وإغفال نظرها بعد أن شاهدته يمسك في يده سلطانية الشعرية المسلوقة بالزيت ويلتزمها التهاما، أليس كذلك؟ الصبي خائر القوى ولا يستطيع أن يعود إلى تفكيره الذي أصابه التشوش، لقد أصبح مضطربا بالحزن والغم. لم تهتم الزوجة بملابسه الجديدة بجلاء، بل استجمعت قواها لتنظف فتحة العبوة المعدنية المغلقة بإحكام، فقد كرهت نوايا الصبي، كما أن ذاك الصبي حساس للغاية ولا يستطيع أن يبوح بما يعتل داخله، وملكة التمييز لديه يجانبها الصواب دائما، ويعتقد بإصرار أن «تغيير ملابسه» ليس كافيا، ويتذكر ملابس ابن عمته الكبير الحديثة على الموضة. في تلك الأثناء يسمع الزوجة تقول له: هل لديك أمر آخر؟ يرد الصبي شارحا موقفه أنه يرغب فقط في أن يبلغ الزوجة أنها إذا احتاجت إلى مياه

معدنية يمكن أن تستدعيه عبر إشارة النداء الآلي، فهو يمتلك جهاز تبليغ المكالمات الهاتفية (BP)، تقول الزوجة في استغراب: ماذا تقول؟

يشعر الصبي بفرحة غامرة من جراء تعابير الغرابة التي بدت على الزوجة، فهو يأمل أن تظهر اهتماما به. ويبلغها للمرة الثانية أنه يمتلك جهاز تبليغ المكالمات الهاتفية ويمكن استدعاؤه.

تقول الزوجة: معنى كلامك أننا لن نستطيع الاتصال بهاتف محطة المياه لفترة طويلة قادمة، أليس كذلك؟ يقول الصبي: كلا.

تقول الزوجة: إذن، لماذا أستدعيك عبر جهاز تبليغ المكالمات الهاتفية؟

يقول الصبي: مقصدي أنه يمكن استدعائي إذا احتجت مياه معدنية في هذه الأيام.

تقول الزوجة: لا توجد ضرورة لذلك. يمكن أن ترسل لي عبوة معدنية مرة أخرى بعد خمسة أيام، حسنا أم لا؟

يقول الصبي: إذن، تشعرين بعدم ضرورة تسجيل رقم جهازي الخاص بتبليغ المكالمات الهاتفية؟

تجيب الزوجة بصورة صارمة وقاطعة قائلة: لا داعي. تمقت الزوجة ذاك الصبي مرسل المياه المعدنية إلى حد ما، أيعتقد من هو؟ كما يطلب منها أن تستدعيه هاتفيا، هل معقول أن أي شخص مؤهل ومناسب أن يتصل بها هاتفيا؟ وحتى لو نفذت المياه المعدنية لديها حقا، ولا تستطيع الاتصال بجميع

محطات المياه، والماء الذي يتدفق من الصنبور في البيت ليس ماء؟ وإذا عادت عقارب الزمن إلى الوراء، عادت إلى عشر سنوات أو عشرين سنة خلت، ماذا كانت الزوجة وجميع قاطني هذه المدينة يشربون؟ كانوا يشربون الماء العادي المتدفق من أنبوب الماء. وعندما كانت الزوجة صغيرة في عهد الطفولة، أقامت في مبنى مهاجع الطالبات الذي شيد على غرار أنبوب الماء، ويستخدم الجميع بصورة مشتركة أنبوب الماء في نهاية الممر. وفي أمسيات أيام الصيف، كانت لا تغسل أقدامها في البيت أبداً، بل كانت تلبس دائماً الصندل وتدلّف إلى أسفل أنبوب الماء المشترك وتشطف أقدامها، وبعد أن تنتهي من الشطف، تتوجه مرة أخرى إلى أنبوب الماء وتحتسي بصورة مباشرة جرعة من الماء العادي. والكبار يمنعون احتساء الماء العادي، ويطلبون منها أن تشرب الماء المغلي بعد أن يبرد، ولكن هي وصديقاتها يشطفن أقدامهن هكذا، ويشربن الماء الطبيعي العادي. ونموهن يسير بصورة طبيعية، والسموم لم تقتلن، وشبن عن الطوق، وهن في صحة جيدة وقوية. وتستعيد الزوجة أحداث الماضي وقلبها يغص بالنوايا الدافئة، ولكن بات ذلك مجرد ذكريات. وفي الوقت الحاضر، قد أصبحت أما، ولا ترغب إطلاقاً أن تترك طفلها وفلذة كبدها يكبر وهو يشرب الماء العادي المتدفق من أنبوب الماء، ويفتقر إلى المعيار الدولي. وحتى زوجها المقيم في الخارج ويضطلع بالبنس عندما يعود أدراجه في رأس السنة الجديدة، لم يتكيف بعد مع البيئة ويصيبه الإسهال، حتى ولو شرب الماء العادي المغلي. ومن ثم تحتاج الزوجة إلى أشخاص

يرسلون إليها المياه المعدنية، وأخيرا، تستطيع أن تتحمل وطأة مثل هؤلاء الأشخاص.

وبعد انقضاء خمسة أيام، حضر الصبي إلى بيت الزوجة مرة أخرى. وما زال يرتدي الملابس الغربية والحداء الجلدي، ويلف حول عنقه شالا مخرما، مما جعله يبدو أكثر ضخامة. تفتح الزوجة له الباب، وتمضي الأحداث كما كانت في المرة السابقة. والشيء الجديد في هذه المرة، أنها وجهت إليه كثيرا من الأسئلة في أثناء دفعها ثمن كوبون المياه. ومن المحتمل أن يرجع ذلك فقط إلى رغبتها في أن تعلمه كيفية الحفاظ على الثقة والسمعة الطيبة، وربما ليس في جعبتها كلمات، وتبحث عن مادة للحديث. وسألته كم يكسب من توصيل العبوة الواحدة من المياه المعدنية؟ ويجيب: ثمانية ماوات، ثم تسأله عن عدد العبوات التي يستطيع توصيلها في اليوم الواحد، ويتوقف لحظة عن الكلام، ويفكر جيدا أن يتكلم كلاما فارغا مع الزوجة. ثم يرفع رأسه ويقول إنه في اليوم الواحد يقوم بتوصيل ستين عبوة على الأكثر. ولا يأمل أنها لا تحتقره، ويخبرها أيضا أنه يكسب نقودا غير قليلة في اليوم الواحد. وللأسف إن الزوجة لا توليه اهتماما، ولا تريد أن تعرف ماذا يعني ستين عبوة بالنسبة إلى الصبي، هل يدل على أنه يقضي وقتا طويلا ويبدل مجهودا جسمانيا ضخما؟ كما لا تريد أن تحسب ستين عبوة ضرب ثمانية ماوات يساوي كم من النقود؟ لقد تحدثت معه بعض الكلمات لأنها ترغب في ملء هذا الفراغ الموجود فقط وقبل مغادرته البيت. ومن ثم سيان عندها إذا كانت كلماته هزلية أم

جدية. ولذا كانت إجابتها بلا تدقيق، وقالت: آه، ستون عبوة مياه معدنية.

إن إجابة الزوجة، بلا تدقيق، وتعابير وجهها العادية في أثناء الحديث سببتا جرحاً لمشاعر الصبي. وفي الأصل، لم تفلح أكاذيبه المتضخمة والأرقام المفرطة في تلك الأكاذيب أن تحرك مشاعرها، بل أثارت سخريتها؛ لأن ذلك كله من المستحيل، الصبي ليس عنده عمل يقوم به هنا، بل هو أصلاً ليس لديه ما يقوم به هنا، ولكن لماذا لا يزال في بيتها ولم يغادره؟ ويشعر الصبي بالعطش، ويقول لها إنه يريد أن يشرب قليلاً من الماء.

الزوجة تلوح برفق شديد بذقنها صوب حوض غسيل المواعين. وطبعاً، يستطيع الصبي فقط أن يدخل إلى حيث يوجد هذا الحوض المجهز بفتحتين يجمعهما جاروش الفضلات، ويمتد فوقه صنوبر الماء الفولاذي الذي لا يصدأ، وتصميمه مبتكر، ورقبته طويلة، وشكله لماع. الصبي يتقدم إلى المكان المحدد له، ويشعر بالذهول إلى حد ما، ويميل برأسه الصغيرة التي تغص بالأتربة والهبرية، ويمد فمه تجاه الصنوبر البارد.

تنقضي خمسة أيام أخرى. ويعيش الصبي أياماً كئيبة. وقد اكتشف ابن عمته أن ملابسه الغريبة وحذاءه الجلدي يلبسهما الصبي خلسة بصورة دائمة، كما جعلها قدرة. ينشب العراك بين الصبي وبين ابن عمته من جراء ذلك، ما دفع الأخير إلى وضع الأشياء التي يرى أنها غالية في صندوق مقفل. وخلال الشجار نجد أن الصبي ليس خصماً لابن عمته مفتول الساعدين الذي يستطيع أن يمسك بخناقه ويجذبه إلى أعلى ويعلق قدميه في

الهواء. وعلى كل حال، الشجار ليس مخيفا إطلاقا في حد ذاته، وأقصى ما يخشاه الصبي عادة هو حديث عمته إليه على هذا النحو، فهي دائما تفرك جفونها وتقول له أنت تقيم مجانا في دارنا، ومرة أخرى هكذا... يدرك الصبي مغزى كلامها اللاحق، ومن المحتمل أن يطرد من بيت عمته في أي وقت، ويفكر أن يندس داخل أروقة هذه المدينة، ولم يعد أمامه سوى تأجير شقة على حسابه الخاص. ولكن كان تفكيره يومذاك مشوشا ومضطربا، وحالته النفسية شديدة التأثير من الارتباك والحيرة، لدرجة أنه يطلب الصفح من ابن عمته الذي غادر بوابة المسكن في الحال، ثم ما لبث أن اعترته رغبة محمومة في أن يفتح صندوق ابن عمته عنوة. ورغبته هذه أكثر قوة من طلبه الإفصاح حتى يحصل على مبتغاه فجأة من دون أن يحسب للعواقب حسابا. ويفتح صندوق ابن عمته قسرا، ويتهندم في أجمل صورة، ويلبس كل ما يستطيع من الملابس، ولا يتلحح بشال ابن عمته ذي المربعات فقط، بل يفرد أسفل رقبتة رابطة العنق المرقشة، ويشبك في خصره رزمة مفاتيح متعددة الألوان والأشكال تشمل مطواة، ومقص طواء، وهاتفنا نقالا غير حقيقي. وأخيرا، يركب رأسه ويصر على أن يأخذ المسجل وكمان (Walkman) الخاص بابن عمته، ويدسه في جيبه، وتغطي السماعة الكبيرة السوداء رأسه ثم يضعها في أذنه، ويفعل ذلك كله من وراء ظهر عمته، ويتسلل في الظلام مثل الخفاش، ويهرول مباشرة إلى محطة المياه، مثل جرد صغير ثقيل الحركة ورشيق السرعة أيضا.

الصبي يقود دراجته ويحمل عليها عبوة المياه المعدنية

الجديدة ويقصد بيت الزوجة، كان الطريق وعرا، ودراجته
تمشي في تباطؤ وتثاقل، نتيجة تلف في إطارها الخلفي.
لم يعرف من أ تلف هذا الإطار... اضطر أن يدفع الدراجة
ويبحث عن دكان يصلح فيه ذاك الإطار. وعندما يقود دراجته
مرة أخرى على الطريق، كانت أذناه تغص بأغنية «القلب ضعيف
جدا». وكان صوت الأغنية عاليا، وكاد يطير به من فوق مقعد
الدراجة. وسارت الأمور على ما يرام لأنه في لمح البصر انفصل
عن كل الموجودات من حوله، ونأى بنفسه بعيدا عن كل شيء، من
السيارات، والمشاة، والشوارع والأشجار، ولم يكن يشعر إلا بصوت
الأغنية في أذنيه يقوده إلى الأمام، ربما كانت تلك الأغنية
تقود الدراجة بدلا منه. ومن ثم، كانت حاستا السمع والبصر
لديه ومشاعره مخدرة بعض الشيء. ولا يدري أن دراجة ثلاثية
تعلقت به وأسقطته على الأرض. في تلك الأثناء، ينقطع صوت
الأغنية، ويشعر بالموجودات من حوله، ويسقط هو ودراجته
على أديم الأرض، وتتدحرج عبوة المياه المعدنية بعيدا. ينهض
من سقطته، وتتسخ ملابسه الغربية وحذاؤه الجلدي بالغبار
والأتربة، ويحاول تشغيل جهاز التسجيل «وكمآن»، ولكن الجهاز
قد أصابه التلف. والدراجة الثلاثية التي طرحته أرضا لا ذات
بالضرار. ومن حسن حظه أن عبوة المياه المعدنية ليس بها ضرر.
يعلق الصبي هذه العبوة في شنطة الدراجة الخلفية ويمسكها
بعلاقة، ويمضي قدما إلى الأمام قاصدا منتزه خو بينغ يا.
وكان الجو بعد الظهر، في ذاك اليوم هادئا... ويوقف الصبي
دراجته أمام بوابة البناية السكنية رقم «٥»، وينفض الغبار العالق

بجسمه من أعلى إلى أسفل، ويحمل عبوة المياه المعدنية على ظهره ويدلف إلى ردهة هذه البناية، ويتقدم إلى المصعد مباشرة، ومن حظه العاثر أن المصعد أصيب بعطب في هذا اليوم ومعطل مؤقتا. وكان ذلك - بالنسبة إلى الصبي - قال شؤم حقا. إذ يجب عليه أن يصعد السلم إلى الطابق الثامن حاملا على كتفه عبوة المياه المعدنية، التي يبلغ وزنها خمسين جينا. وربما يجب عليه أن يتراجع عن تقديم هذه الخدمة، ويبحث عن شخص آخر يستطيع أن يغير الميعاد ويأتي في يوم آخر، وعلى كل حال، يشعر الصبي بأن ليس أمامه مجال للتراجع، حيث إن إصراره وتعنّته الشديدين، ومجابهة المخاطر ومشقة الحصول على الملابس التي يرتديها، وسמاعة الأذن التي تبدو حديثه، على الرغم من الأضرار التي أصابتها، وتواثبه وترنحه وتباطؤ عمله كل ذلك شجعه على عدم التراجع وحتم عليه أن يصعد إلى الطابق الثامن ليرى الزوجة. إذن، لقد بدأ الصعود. وفي ذلك الحين، كان حذاؤه الكبير بصورة مفرطة غير ذي جدوى بصفة خاصة، حيث إنه ثقيل وغير مناسب أيضا، وأصبح عبئا ثقيلا على الصبي في أثناء صعود البناية. وعندما صعد إلى الطابق الخامس، شعر بأن سماعة الأذن تصدر طنينا مدويا، ورأسه تعرق بسبب المرض، وظهره مبلل كلية، والسعرات الحرارية داخل جسمه لا تكفي أن تعوضه عن مظهره غير العادي. يستريح الصبي ثلاث مرات حتى يصل إلى الطابق الثامن في نهاية المطاف.

تسمع الزوجة رنين جرس الباب، وتعرف أنه الصبي بالتأكيد من خلال عدسة الباب، ثم تفتح الباب.

الصبي في عيون الزوجة يبدو أكثر غرابة عن أي مرة أخرى. الصبي يضطلع بإحضار عبوة المياه المعدنية فقط، وهو الآن في الدوام، فعلام يدل مظهره الخارجي؟ حيث يرتدي الملابس الغربية، والشال، ورابطة العنق الزاهية، ويعلق سماعة كبير في أذنه. إنه يبدو كأنما ينتقل إلى مسكن آخر، أو استولى حالا على متجر ألف صنف وصنف. ولكن عبوة المياه المعدنية فوق كتفه ألغت كل هذه المظاهر والأبهة لدى الصبي. وعلى أي حال، الزوجة تريد المياه المعدنية فقط، ومن ثم جعلته يدخل البيت. يدخل الصبي البيت وهو يلهث قليلا، ويمشي حتى يصل إلى مبرد مياه الشرب، ويركب عبوة المياه المعدنية، ويقوس ظهره دائما، كما يغطي بطنه بيده. وبات من الصعب جدا - في تلك اللحظة - أن تحدد ماذا أصابه؟ ربما ألم في بطنه، وربما ألم في المعدة، وربما لا يشعر بالألم في أي موضع من الجسم، إنه يعاني فقط من الإرهاق الشديد. ومن المحتمل ألا يشعر بالتعب، ولا ينصب قامته دائما. ويأمل أن يستغل هذه الوضعية ويثير شفقة الزوجة. وهي المرأة التي تحرص على الفضول والتدخل في شؤون المرأة الأخرى. إن إثارة شفقة ورحمة الزوجة كانت مجرد آمنيات، كما تشير إلى بعض التدلل. وأيا كانت هذه الإثارة الضئيلة، فإن الصبي نفسه قد لا يوضحها أيضا. وإذا أدركت الزوجة هذه الأمنيات الباطلة وهذا التدلل، فإنها تحتقر الصبي وتستشاط غضبا، ويتضافر الغضب مع الازدراء وتطرده في الحال.

تجيل الزوجة بصرها عرضا في تعابير وجه الصبي عندما شاهدته في تلك الوضعية، وملامحه تدل على أنه ليس عابسا

الزوجة تطلب بصرامة من فلذة كبدها أن يعود إلى حجرته،
وتقول له: ارجع إلى حجرتك.

ينصرف الطفل المحبوب ويمسك في يده كوبه الفارغ، ولم
يبك، ولم يحدث جلبه أيضا، وشعر بالتأكد بأن الجو هنا
غير معتاد. يرجع إلى حجرته، وتغطي يده الصغيرة برفق باب
حجرته.

الزوجة أكثر صرامة تخاطب الصبي قائلة: من فضلك، اخرج
من هنا.

الصبي أصابه اليأس تماما، ويعرف أن ما يريد ليس مياه
معدنية، إذن، ماذا يريد؟ وماذا يريد بالضبط؟ هو شارد الفكر
حقا، وتفكيره غير واضح أصلا. والآن، وفي هذه اللحظة
بالذات، يريد أن يتوقف ولكنه لا يستطيع أن يسيطر على
مشاعر الغضب العارمة لديه بصورة واضحة أو مبهمة، كما بدأ
يكره طقم الملابس الغربية التي أعجب بها، ويغض الأشياء
الصغيرة التواقعة على جسمه، وبدأ يمزقها، ويمسك في يده
رزمة المفاتيح المعلقة حول خصره، وتشتمل على مطواة،
ومقص طواء، وهاتف نقال غير حقيقي. ويضم قبضته على
المطواة ويفتحها. المطواة ليست طويلة، ولكن طرفها حاد جدا.
يقامر الصبي بكل ما يملك، وفي حركة بليدة يشهر المطواة
الصغيرة صوب الزوجة، ويتقدم نحوها خطوة، ولا يتمالك
السيطرة على نفسه. ويشعر بأنه يكرهها، وعندما بدأ يكرهها
أدرك بجلاء أنه مغرم بها. ولكن، في ذلك الحين، بات الغرام
والكراهية شيئا واحدا، وهما سيان بالنسبة إلى الصبي. ولم

يستطع أن يتقبل ويتحول في المساحة القائمة من الغرام إلى الكراهية. ومن أجلها تهندم في ملابسه الغريبة وحنائه الجلدي. ولكن هذه الزوجة الآن جديرة بكراهيته مثل ملابسه وحنائه. ولكن ماذا يريد أن يفعل؟ هل يريد قتلها أم يشرب مياهها المعدنية؟ ربما يريد الشئين معا. وفي تلك اللحظة لم يتمالك نفسه لدرجة لا يستطيع التمييز بين قتل الإنسان، وإجباره على إعطائه جرعة ماء لكي يشرب، وكلاهما جريمة خطيرة. إنه لم يدبر مؤامرة سلفا، وليس لديه أسلوب تأمري منهجي، ويتفوه بكلماته كيفما تقوده قدماه.

الزوجة ترقب الصبي القريب منها وتدرك الخطر حقا. وارتأت أنها قابلت لصا اقتحم بيتها. ولكن - مع ذلك - الظروف في مصلحتها. وتحاول السيطرة على نفسها بعض الشيء، وتهدي من روعها بقدر ما يمكن، وتقهقر خطوة إلى الخلف، وتستند إلى ظهر الموقد، وتخفي يدها اليمنى خلف ظهرها بصورة كافية حتى تمسك بالمسدس فوق ظهر الموقد، تقبض على المسدس بكلتا يديها، ثم تصوبه نحو الصبي على حين غرة. إنه مشعل النار في هيئة مسدس، اشتراه زوجها الذي يعمل في الخارج بأربعة دولارات أمريكية من السوق الحرة في مطار الشارقة عندما كان في الترانزيت. والآن تضطرب نبضات قلب الزوجة، وتبذل قصارى جهدها حتى لا ترتعش يدها التي تمسك بالمسدس، ويتحتم عليها أن تجعل الصبي يصدق أن ذلك المشعل مسدس، وأنه مسدس حقيقي وأن الذخيرة الحية في يدها. وعلى هذا النحو، أصبحت الزوجة التي تمسك بالمسدس

في يدها، والصبي الذي يمسك المطواة وجها لوجه، ويتمسك كل منهما بموقفه، ربما لمدة ثلاث أو خمس دقائق.

الأجواء مهيأة للانفجار. وتشعر الزوجة بأنها يجب عليها أن تتكلم. المسدس في يدها، ولكن على العكس كتمت صوتها بشكل أكبر. تكتم صوت حنجرتها وتصوب المسدس نحو الصبي، وتقول له: اخرج، إذا لم تنصرف سأطلق النار عليك.

المسدس يبت الخوف في نفس الصبي حقا، ولم يخطر بباله أبدا أن المسدس ربما يكون غير حقيقي، وذلك لأن الزوجة من ذوي المستويات الراقية: شقتها وسيارتها وحياتها، كل شيء لديها ينتمي إلى المستوى الراقى لدرجة تجعلك تكره نفسك بلا ريب. ويتزامن مع تلك اللحظة التي يشعر فيها الصبي بالهزيمة، إحساسه بالذهول الذي لا يكبح جماحه من جراء ذاك المسدس في يد الزوجة، إنه مسدس، آه، مسدس شكله هكذا! آه! ويحملك في فوهة المسدس السوداء التي تشبه العين المفتوحة والضم شبه المفتوح، ويبدو أن ذلك المسدس هو المصدر الحقيقي لشعور الصبي بمركب النقص، وجعله لا يعرف أين يخبئ نفسه من شدة الخجل. وفي لحظة، يبدو أنه يرغب في إخفاء المطواة الصغيرة التي في يده، والتي جودتها رديئة وحقيقة الشكل خلف ظهره، ويبدو شكل المطواة حقيرا بشكل أكبر بسبب كونها رديئة، كما تبدو تافهة وزهيدة بصفة خاصة بسبب تلك سوء الجودة. وماذا يفعل الصبي؟ ويده التي تقبض على المطواة المبللة بالعرق. وعلى كل حال، لا يدري ماذا يجب عليه القيام به؟

تردد الصبي يزيد من قوة الزوجة، وتشدد زناد المسدس

بأصبعها في جسارة ويحدث المسدس صوت «طق» مرتين. وتهدف من ذلك إلى تخويف الصبي بشكل أكبر، وطرده بسرعة. وعلى الرغم من أن الصوت «طق» قد يجعل الصبي يكتشف أن المسدس غير حقيقي، بيد أن الزوجة تتوجس خيفة ولم تستطع أن تكبت خوفها، وتشد الزناد مرة أخرى، وينبعث الصوت «طق» مرتين أيضا.

صوت المسدس يصيب الصبي بالذهول مرة ثانية، وجعله كأنما سمع صوتا ضخما لا يضاهي من السخرية، ولا يعرف أين يخبئ نفسه من شدة الخجل، ويفكر في أن يرخي المطواة، ويشعر بأنه يريد الانقضاض على الزوجة، الانقضاض على المسدس الذي استحوذ على إعجابه وأصابه بالدوخة، الانقضاض على كل شيء بعيد عن مناله ورفيع المستوى بالنسبة إليه. ويرخي فعلا المطواة التي جعلته لا يعرف أين يخبئ نفسه من شدة الخجل، وفي بعض الأحيان يتحلى - بصفة خاصة - هؤلاء الذين لا يعرفون أين يخبئون أنفسهم من شدة الخجل بقوة انفجار من الحزن والكآبة، والتهور والطيش. وفي تلك الأثناء، سيارة الشرطة «١١٠» تقف أسفل البناية السكنية، ويقتحم البوليس الباب ويدخل. إن طفل الزوجة فلذة كبدها توارى عن الأنظار في غرفته، وأبلغ الشرطة من خلال الهاتف النقال الخاص بأمه. وأخيرا، تمتع الطفل المحبوب بفرصة سانحة حقا للاتصال بالرقم «١١٠».

الزوجة تستمع إلى استجواب البوليس «١١٠» للصبي واتهامه بأنه صبي صغير السن، ويمسك مطواة ويقتحم البيت بقصد

السرقه والنهب، ويجعله يدرك أنه ارتكب مخالفة قانونية. يقول الصبي إنه لا يفكر في السطو والسرقه. ويقول البوليس: إذن، ماذا تريد أن تفعل؟ يطأطئ الصبي رأسه في كل مرة يوجه إليه البوليس هذا السؤال. والبوليس يسألك أيضا: أتعرف ما هو الخجل؟ الصبي لا ينبس ببنت شفة. ويردف البوليس: آه، وما الشيء الذي يستطيع أن يجعلك خجولا؟ الصبي يفكر مليا ويقول: المسدس. ويسأله البوليس: هل تخاف من المسدس؟ يجيب الصبي: كلا. الزوجة أشهرت المسدس في وجهي، وأنا عندي الخطوة فقط. ويقول البوليس: أتشعر بالخجل لأنك لا تمتلك مسدسا؟ يلتزم الصبي الصمت مرة أخرى. تدور رأسه في بحر من الأفكار التي ربما رصعها فعلا بالمقدرة الساحرة البراقة ورفيعة المستوى أيضا، وجعلته يبتهج بالمسدس، ويتطلع كثيرا إلى أنه يجب أن يكون ذاك الشخص الذي يمسك المسدس. وقد نسي الزوجة تقريبا في ذلك الحين.

وفي بعض الأحيان ينتاب الزوجة غرور صارم، وتذكر ذاك الصبي الذي ترك انطبعا في نفسها على الرغم من شراسته وضعفه. وعلى كل حال، إنه ليس خصما للزوجة في نهاية المطاف، بل وحتى لا يضاهي طفلها صاحب السنوات الخمس. وليس إطلاقا أن جميع الأطفال في سن الخامسة لديهم المقدرة على الكلام بوضوح والاتصال بالنجدة في حالة الطوارئ. وطفل الزوجة المحبوب يستطيع ذلك. وتضم الزوجة طفلها إلى صدرها بقوة كلما تتذكر تلك الأحداث. وفي الأيام التالية لوقوع الحادث، وعندما تعطل المصعد بالمصادفة، واضطرت إلى

أن تصعد السلم وهي تستشيط غضبا، تذكرت أيضا أن البوليس «١١٠» قد أخبرها أنه كان في استطاعه أن يصل إليها أسرع من ذلك إذا لم يكن المصعد معطلا وقتئذ. إذن، الزوجة تخمن أن الصبي يومذاك حمل عبوة المياه المعدنية على كتفه وصعد إلى الطابق الثامن. ويبرق أمام عينيها الصبي وهو يقوس ظهره ويغطي بطنه بيده.

تتذكر الزوجة وقائع الحادث بصورة مستمرة، وتسأل نفسها بكل صرامة: كيف تعالج هذا الأمر؟ هل أشعر بالخجل جراء تعب وإرهاق الصبي؟ كلا.

يتردد داخل أعماقها بصوت عال: «كلا».

الصمغ العربي (١)

عندما كان الليل يرخي سدوله وينشر ظلامه، وضع جياقوي قنغ يده على كتف الفتاة شياو مي.

وجلسا كتفا لكتف فوق جبل الأحجار السوداء في الجهة اليمنى من مركز المحافظة. وكما ذكر جياقوي قنغ أن ذاك المكان يعتبر أجمل منظر في مركز المحافظة، كما أنه هادئ جدا، وقلما يدلّف إليه الأشخاص الذين بلا وظائف محددة.

جلس جياقوي وشياو مي هناك طوال فترة ما بعد الظهر، يناقشان الفن، والفلسفة، والتخطيط لمستقبل كل منهما. وكانت مناقشتها حامية جدا، ومؤثرة جدا، وتبادلا إعجاب كل منهما بمهارة وكفاءة الآخر، كما كانا يكفان عن الحديث بين الحين والآخر، وتصدر عنهما صيحة من السخرية والتهكم إزاء العزلة والجهل في مركز المحافظة. وعلى الرغم من أنهما ولدا محليا وترعرعا محليا، بيد أن طموحهما وتطلعاتهما - على كل حال - تفوق كثيرا جدا طموح قاطني هذه المحافظة.

وكانت شياو مي تتجاوز العشرين عاما بقليل يومذاك، وكانت مذيعة مؤقتة في دار إذاعة المحافظة، وملاحها وسيمة وأنيقة،

وقوامها ممشوق أيضا. وفي عهد الطفولة، تعلمت الرسم الصيني التقليدي لبضعة أيام، عندما كانت تصطحب والدها الذي يعمل في المركز الثقافي التابع للمحافظة، وتتجذر بصورة عميقة داخلها الخبرات الفنية المكتسبة الواعية، ولا يدخل في حسابها ولا في نطاق رؤيتها كل الشخصيات الثقافية المشهورة في المحافظة. وكان جياقوي قنغ يناهز الثلاثين عاما إذ ذاك، وهو مصمم فني في مصلحة السياحة التابعة للمحافظة، والمسؤول عن الخط، ورسم شارات الطريق لدخول الجبل، والخرائط المبسطة للمناظر... وهلم جرا، حيث توجد غابة ثانوية عذراء في المحافظة. وعقدت المحافظة - ذات مرة - دورة تدريبية فنية، وشارك فيها كل من جياقوي قنغ، وشياومي، وتعرف كل منهما على الآخر في أثناء تلك الدورة.

وشب جياقوي قنغ عن الطوق بصورة لا تفوق غيره بالنسبة إلى الرجال، وتتراوح قامته بين مائة وخمسين ومائة وسبعين سنتيمترا تقريبا، ووجهه أصفر، وعيناه متورمتان ومنتفختان، وشعره أشعث خشن قاتم، وتبدو بقع صفراء وسوداء في أسنانه من جراء التدخين وعاداته الصحية غير الجيدة.

وثيابه غير مهندمة، ويرتدي جاكيت فضفاض، تطال حاشيته ركبته، ويظهر أنه يستغل ذلك، ويتعمد أن يكون جسمه غير واضح المعالم، ويجعل قامته أقصر أيضا. ويواجه صعوبة في سن زواجه، حيث يبدو أنه يفتقر إلى الأشياء التي تستحق الاهتمام من منظور معايير هذه المحافظة. وطاف يزور بعض زميلاته، وكان يطارد عادة من قبل الكلاب في الأفنية قبل أن

يفشاها. وعلى الرغم من أن طباع الكلاب في كل منزل مختلفة جدا، حيث بعضها شرس بعض الشيء، والبعض لطيف إلى حد ما، ولكن تصرفاتها إزاء جياقوي قنغ كانت متشابهة ومتماثلة تماما. وتندفع نحوه وتزمجر، وتكشر عن أنيابها، وتحاول الانقضاض عليه وتمزيق جسده. وفي تلك الأثناء، يثني جياقوي قنغ رجليه ويجلس القرفصاء على الأرض ولا يتظاهر إطلاقا بأنه يلتقط حجرا ويجعل الكلاب تشعر بالتهديد، حيث إن خبرته في التعامل معها ضئيلة وتناهى كثيرا عن الإنسان العادي، بل مقصده أنه يطلب الرحمة من الكلاب وهو جالس القرفصاء. وتبدو أمارات وجهه كئيبه ومهمومة من جراء الرعب المبالغت، فضلا عن الكآبة والحزن الناجمين عن الشعور بالنقص، ولا يضاهي ذلك جاكيتة الفضفاض وحاشيته التي تكنس الأرض، ويبدو أن جاكيتة يطمره تماما، أو نقول يظهر أيضا أنه يضطجع داخل ملابسه. وعندما ترى شيئا في حالة جياقوي قنغ على هذا النحو يتوسل إلى الكلب في منزلها طلبا للعضو، تندفع من غرفتها، وتزجر الكلب وتسحب جياقوي قنغ من يده حتى ينهض تارة، وتدعوه إلى دخول المنزل تارة أخرى، حيث تشعر بأن الكلب في منزلهم مثل جميع قاطني مركز تلك المحافظة، يفتقر إلى المقدرة على التمييز.

وكيف يستطيع قاطنو تلك المحافظة معرفة كفاءة ورغبات جياقوي قنغ أيضا؟ إنهم جديرون بمعرفة ذلك. وعلى سبيل المثال، عندما كان أهل المحافظة هناك لا يزالون لا يدركون ماهية الرسم الزيتي، كان جياقوي قنغ يعرف أن الرسم الزيتي هو الرسم

على قماش الرسم، كما يدرك أن قماش الرسم يجب أن يدهن بطلاء تحضيرى قبل الرسم. وما استحوذ على إعجاب شياومي أن جياقوي قنغ لا يعرف أبدا الطلاء التحضيرى الذى يحتاج إليه قماش الرسم، بل يعرف أن هذا الطلاء يحتاج إلى نوع من الصمغ الذى يغلى حتى يصبح جاهزا للاستعمال. ولم يكن في الحسبان أيضا أنه يعرف أيضا اسم ذاك النوع من الصمغ... إنه صمغ غير عادى. وقد ذكر ذلك جياقوي قنغ لكوكبة من الشبان عشاق الفن في المحافظة.

يسأل أحد الشباب، ويدعى جيو تشنغ: ما اسم ذلك النوع من الصمغ؟ ويعد جيو تشنغ من المولعين بالرسم. لا يلتفت جياقوي قنغ إلى جيو تشنغ، بل يركز اهتمامه فقط على عيون شياومي، ويمسك عن الكلام قليلا، ويقول: ذلك النوع من الصمغ اسمه الصمغ العربى. اسمه الصمغ العربى.

جيو تشنغ يسمع كلام جياقوي قنغ، كما سمعته شياومي بشكل أكبر. وإذا كان الطعام والشراب يتسمان بالتفوق في الشعور بالطعم اللذيذ من الفم، إذن، اللغة تتحلّى أيضا بنصيب من هذا الشعور من الجمال والقبح. وشياومي تردد كلمتي الصمغ العربى تهامسا، وتشعر بأنهما في الفم تتدفقان وتتمعجان، وتبتلعهما وتلفظهما، كما تشعر بأنهما تتحليان بالحضارة والتناءى، والروعة والرومانسية أيضا. كما أصبحتا في الحال راقيتين ومدهشتين لأن جياقوي قنغ نطق بهما. والطفلة شياومي تؤمن أصلا بأن ذوقها وميولها يفوقان مركز المحافظة، وحالما تراودها هذه الأفكار،

من السهل أن تختلف في سلوكها ومظهرها عن الآخرين بصفة خاصة. والصمغ العربي جعل أسنان جياقوي قنغ غير ناصعة البياض، وشعره الأشعث، ومظهره المذري تتدهور بشكل كبير. وترى شياو مي أن ذلك لا يعد نقيصة تنال من الرجل، بل تعتبر من ملامح النابغة الذي يتصرف تصرفا حرا. ولا تولي اهتماما بنظرة الزوراء السائدة بين ذوي السن نفسه، وتأخذ بزمام المبادرة وتقترب من جياقوي قنغ وتدعوه إلى زيارة منزلها. وفي الخريف، تستقبل مصلحة السياحة بالمحافظة رساما مشهورا جاء يرسم من الطبيعة في ذاك المكان، وكان جياقوي قنغ مسؤولا عن مرافقته. كما كانت شياو عادة تصاحبهما من الأمام والخلف. واستعار جياقوي قنغ آلة التصوير من تلك المصلحة خصيصا من أجل التقاط صور للرسام، وفيما بعد اختار منها الرسام صورة ووضعها في اليوم الرسوم الخاص به. الرسام يدلف إلى الجبل ويرسم من الطبيعة، ويجلس جياقوي قنغ خلف ظهره. وكانت النتيجة أنه حظي بمدحه وثنائه. وأكد الرسام أن رسمه من الطبيعة وتشكيل مقدرته، بل حتى ذكر بصورة مفرطة أن إحساسه بالألوان، شجعه ذلك كله على أن يضطلع بمزيد من الرسم. ويتأثر جياقوي قنغ بكلمات الرسام وتشجذ شجاعته ويسهب في الحديث مع الرسام، ويتناقش معه حول بعض الرسامين الصينيين والأجانب الذين يحبهم، والذين يستخف بهم ويتجاهلهم. وعندما كان يتحدث عن عيوب بعض هؤلاء الرسامين، كانت كلماته حادة وتصيب الهدف، فعلى سبيل المثال، الرسامون فلان وفلان وفلان، ويختار رساما واحدا مشهورا، ويقول: رسومه تروع المرء للوهلة الأولى،

وعند التفكير فيها مليا وبدقة تجدها عبارة عن ظلال الآخرين أو نتف من بعض الأجانب، وتعوزها مقدرته الفنية، وهل يكرس جهوده في الرسم؟ وأرى أنه ليس كذلك، فهو يرسم من خلال بعض المفاهيم المفككة. كما أخبر جياقوي قنغ الرسام بأنه رأى في يد أحد السياح كتابا بعنوان «هاوك نيه يناقش التصوير». ويقول جياقوي قنغ إن هاوك نيه يعتبر رساما يستطيع طرح بعض الأفكار غير المبتدلة في التصوير. ولذا استحوذ على إعجابه، وللأسف إنه لم يستطع أن يستعير هذا الكتاب من السائح. يشعر الرسام بالذهول إلى حد ما، حيث يقف أمامه شاب من مركز المحافظة ملامحه دميمة ويتحلى بالفهم حقا. ويشجع جياقوي قنغ مرة أخرى، ويطلب منه ممارسته الرسم بشكل أكبر للمرة الثانية، ويبدل قصارى جهده حتى يتمكن من المشاركة في معرض الرسم المزمع إقامته في المقاطعة. ويتولى الرسام أعمال لجنة التقييم في كل المعارض الكبيرة، وأخبر جياقوي قنغ أن يرسل رسومه وأن يولي اهتماما بأعماله بالتأكيد. يتأثر جياقوي قنغ ويشعر بأنه قابل صديقا حميما أخيرا. غير أنه لم يمسك ريشة الرسم بعد أن غادر منزل الرسام. وعمله الفني الذي يصور الطبيعة وحاز إعجاب الرسام يعلقه دائما في مسكنه الخاص التابع لمصلحة السياحة، وإطار الصورة مائل بعض الشيء، مما جعل الحجرة تبدو في حالة فوضى، بيد أنه لم يعدل هذا الإطار حتى يصبح مستقيما. وربما العمل الفني الذي يصور الطبيعة المعلق على الحائط بميل يعد الدليل المادي الوحيد على نبوغ جياقوي قنغ في الرسم.

ولا يمكن القول إن جياقوي قنغ لا يعشق الرسم، بيد أنه تعوزه التجاوب في رسومه. وتتجمد دائما حركة ريشته بعد نوبة من أفكار تجيش التأثر والحماسة. وعلى سبيل المثال، يشرح لشياو مي مرارا وتكرارا تصوراته في أحد رسومه على هذا النحو: حقل الذرة الصفراء في ذروة الخريف، ويتكسد على أديم الأرض كومة من الذرة قطفت للتو. وامرأتان ظهرهما أمام المتفرجين، تنحنيان لحصد الذرة. ونسيت نفسي كثيرا من جراء الحركات في ريشة هذا الرسم. والمغاير لهاتين المرأتين رايات تضي بها اللوحة وتشبه أوراق الذرة الصفراء الذهبية. وينتشي جياقوي قنغ في تصوراته، كما تتأثر شياو مي أيضا بتلك التصورات. ولكن جياقوي قنغ يعزف عن الرسم مدة ثلاث سنوات. وكما جاء على لسانه أن حياته تشهد دائما بعض الأحوال التي أوقفت نشاطه في الرسم. وهو - على سبيل المثال - يئن بالشكوى من أن رئيس مصلحة السياحة يكلفه بأعمال إضافية، من إصلاح الطرق المؤدية إلى عدة مناظر جديدة في الجبل، وأنه ليس مهندسا، ولكن رئيس المصلحة طلب منه أن يختار أفضل الطرق، وقياس الكيلو مترات لتلك الطرق الجبلية، وإحصاء عدد المصطبات التي يحتاج إليها، ويحدد الأحجار الخضراء. ويحتاج ذلك القياس وتلك الإحصاء إلى أكثر من نصف عام. وفي أثناء ذلك، عاش تجربة حب فاشلة أيضا. والجنس الناعم في هذه التجربة، كانت فتاة جبلية عظيمة خدها حمراء قانية، وأسنانها بارزة، بيد أنها تتمتع بالبنية القوية. وفي اللقاء الأول بين الطرفين، جاشت عواطف جياقوي قنغ، والبنية الطبيعية

القوية التي تتمتع بها الفتاة جعلته تنتابه مشاعر التهام جسدها. ولكن تلك الفتاة الجبلية ذات البنية القوية لم تقع في غرام جياقوي قنغ. وقد سمع - بعد ذلك اللقاء - أن الفتاة تمقت يديه الصغيرتين، ولا تكثر أيضا بأنه يحمل هوية الموظف العام الحكومي، ولا تكثر أيضا بالراتب الثابت الذي يتقاضاه كل شهر. ولكن جياقوي قنغ لم يكره تلك الفتاة، ويفكر في أن يديه صغيرتان بعض الشيء مقارنة بالرجل العادي. وفي المعتاد، يرغب في أن يدس يديه داخل أكمامه الطويلة، ويجعله ذلك لمن يراه بأنه لا يضطلع بأي عمل ويشعر بالبرد أيضا حتى لو في فصل الصيف.

والآن، يجيء الليل وتنتشر الظلمة على جبل الأحجار السوداء، ويضع جياقوي قنغ يده على كتف شياومي بعد تردد بضع مرات في وضع تلك اليد الصغيرة. ولا تجرؤ تلك اليد على أن تضغط بقوة على كتفها الذي يبدو مثل قطعة من المانتو (خبز على البخار) تغطسها اليد في الماء الساخن. وتلك اليد لا تغطي كتفها بصورة كاملة، ثم تحيد بسرعة عن الكتف كأنما تسبر أغوار شياومي هل تبقى على كتفها أم لا، حتى مالت بوجهها نحو جياقوي قنغ. وكان ذلك إشارة إلى أنها لا تكره اليد فوق كتفها، كما شجعتة أيضا على أن يقدم بعض التلميحات. وشعر في التوبة بالحرارة المنبعثة من وجهها وأنفاسها، أنفاسها المتعثرة بعض الشيء، مثل رائحة الحشائش التي يطلق عليها في الجبل «رائحة الخيار». إنها المرة الأولى التي يقترب فيها كل منهما نحو الآخر. ويعتقد جياقوي قنغ أنها بالتأكيد تستطيع شم رائحة

فمه. ويشعر بأن رائحة جسمه وفمه كريهة، فيكتم أنفاسه، ويدور رأسه، ويسحب يده التي وضعها فوق كتف شياو مي.

ومن المحتمل أن شياو مي شمت الروائح الكريهة المنبعثة من جسم جياقوي قنغ وفمه، وربما إعجابها به كان كافيا أن يحد من وطأة الضيق الذي تشعر به من جراء تلك الروائح، ومن المحتمل أيضا أنها لم تشم منهما رائحة بصورة أساسية، حيث هناك بعض الأطفال الإناث اللواتي يستطعن عدم الاكتراث بكل شيء في بعض اللحظات. ولكن جياقوي قنغ أشاح بوجهه، وسحب يده، ويقول بصورة تشغلها عن تلك الرائحة، أنت تذهبين إلى بكين، وتستطيعين دراسة ما تشاءين، ولكن عليك أن تتذكري دائما ألا يكون ذلك مبتذلا مثل جيو تشنغ المبتذل، لقد بات مبتذلا لا يطاق.

ترغب شياو مي في السفر إلى بكين من أجل تطوير نفسها. وفي اللحظة التي تنتشر فيها ظلمة الليل تودع جياقوي قنغ وهي جالسة على جبل الأحجار السوداء. وبعد أن يسحب جياقوي قنغ يده من على كتف شياو مي، يهزأ من الشاب الذي يدعى جيو تشنغ صاحب الابتذال الذي لا يحتمل، وينخرط في ذلك وقتا طويلا، كأنما ابتذال جيو تشنغ بدد تطلعات شياو مي، ويجب عليه أيضا أن يغدق عليها بمشاعر أكثر عمقا.

(٢)

جيو تشنغ - في الأصل - شاب عاطل في المحافظة، ودرس الرسم الصيني التقليدي في الدورة التدريبية الفنية القصيرة التي أقامها المركز الثقافي، وإسهاماته عادية. ثم تدرب على الخط ولم يحرز تقدماً أيضاً. ولكنه بات مشهوراً في المحافظة على حين غرة، لأنه غير تفكيره، ولم يعد يرسم ويكتب بيده، بل يستخدم إبطه في الكتابة أو في الرسم. ونصب أمام مدخل المنزل طاولة وفرش فوقها ورق شيوان، وصنع بنفسه فرشاة الكتابة الطويلة وتأبطها، ثم بدأ ممارسة الفن الجديد. ويرسم الذئب وابن آوى، والنمر والفهد، ويكتب بعض الجمل المفعمة بالقوة والعظمة، ويجذب المارة، كما يجذب اهتمام محطة تلفاز المحافظة. ويقوم صحافيو هذه المحطة بتصوير بعض المشاهدات التي يستخدم فيها إبطه في الكتابة، ويجرون معه حواراً ارتجالياً. وعندما سئل لماذا يستخدم إبطه في الكتابة؟ يجيب جيو تشنغ بلا جهد فكري: لأن يدي أصابهما مرض غريب، ولم أستطع أن أمسك القلم فجأة، وأنا مولع بالفن، وربما تتعرض حياتي للخطر إذا لم أرسّم أو أكتب مدة يوم واحد. ومن ثم، عقدت العزم على استخدام إبطي في المضي قدماً في ممارسة

الفن، حيث إن استمرار الحياة يكمن في الاضطلاع بالفن. وبعد ذلك، عبر بصورة صارمة وحازمة أنه إذا أصاب المرض إبطه، فإنه سيستخدم النصف السفلي من جسمه مثل: عطفة الرجل، أو الشقوق بين أصابع القدم وغيرها من الأجزاء التي يمكن أن تمسك فرشاة الكتابة، حتى يواصل اضطلاعاً بالفن، وأذاعت محطة تلفاز المحافظة الحوار الذي أجراه الصحفي مع جيو تشنغ، وجذب ذلك محطة تلفاز المدينة. وبعد ذلك، أقامت محطة تلفاز المدينة حفلة فنية شاملة، وبالمصادفة يمكن اعتبار جيو تشنغ يكتب بالإبط من برامج تلك الحفلة. وتدعوه محطة تلفاز المدينة إلى قاعة التمثيل ليعرض فنه، ويعود إلى المحافظة ويصبح شخصية مشهورة. ولم يعد ينصب طاولة أمام مدخل المنزل، بل يؤجر دكاناً في الشارع، ويعلق عليه لافتة كتب عليها: معهد جيو تشنغ لدراسات الخط وفن الرسم. إنه يبيع الكتابة والصور، وأحياناً يدعوه المسؤولون في حكومة المحافظة إلى أن يحل ضيفاً عليهم. وعندما يأتي شخص مهم من السلطات العليا، وبعد أن يحتسي الخمر ويتناول الطعام، يقول رئيس المحافظة لدينا هنا رجل فريد من نوعه، ويدعوه - بعد فترة وجيزة - إلى عرض فنه.

وبينما يسلك جياقوي قنغ طريقه الجبلي على امتداد المناظر السياحية ويحصى الأحجار، كان جيو تشنغ أصبح رساماً مشهوراً ومعتزفاً به من قبل أهل تلك المحافظة. وانتهر جيو تشنغ الفرصة السانحة وأدار فندقاً بسرعة جداً، ويستطيع زبائن الفندق الذين يتناولون الطعام الحصول مجاناً على صورة

ممهورة باسم صاحب الفندق الذي يمسك القلم بإبطه. وفي أوقات العمل، يدعو جيو تشنغ ثلة كبيرة من الشخصيات البارزة في المحافظة، فضلا عن الذين حضروا معه الدورة التدريبية الفنية القصيرة، كما دعا شياو مي وجياقوي قنغ. ويقف جيو تشنغ أمام المدخل يستقبل الضيوف بنفسه، ويصافح كل واحد منهم بيده، إنها يده المفعمة بالمهابة والحزن، والتي قيل إنها لم تعد قادرة على مسك القلم مرة أخرى، ويقول: أستعيد صحتي، ستشفى يدي قريبا. في تلك اللحظة، تحديق شياو مي وجياقوي قينغ في جيو تشنغ مطلق المحيا والمزهو بنفسه، وربما تنتابهما المشاعر المحفزة، وفي رأيهما أن جيو تشنغ يجب أن يترفع تماما عن الألاعيب الصغيرة من الانحطاط، وعلى أي حال، أدركا أنهما لم يحرزا تقدما من منظور ذلك الانحطاط، وتقرر شياو مي مغادرة هذه البيئة المبتذلة الشريرة والسفر إلى بكين، حيث تقطن خالتها الكبرى، للتجول في أصقاعها. أما جياقوي قنغ، فقد شهدت مثله الفنية العليا وهدف الكفاح لديه التحفيز والدفع من جديد في تلك اللحظة، وتذكر ذاك الرسام في المقاطعة، كما جال بخاطره تشجيع شياو مي له مرات عديدة، وشعر بأنه لم يعد يستطيع أن يحيا بلا طموح. ووظيفته مصمم فني في مصلحة السياحة لم تكن أبدا منتهى الطموح في حياته، إن طموحه لم يعد أبدا داخل مركز المحافظة. وبعث برسالة مفعمة بالمشاعر المتدفقة إلى ذلك الرسام، وطلب منه برجا أن يقيم بجواره، ويريد أن يقيم في جو فني حقيقي يتدرب فيه على الرسم. وبعد فترة وجيزة، تلقى رسالة من الرسام ردا على

خطابه، أخبره فيها بأنه من المهم أن يمارس الرسم كثيرا، وإذا لم يستل ريشته في أي مكان، فإن مغزى هدفه لن يتحقق بصورة كبيرة، «فما بالك وأنت موظف حكومي، ولذا من اللازم أن تفكر بهدوء وترو، ولا تستطيع أن تتخلى عن وظيفتك وتغادر وحدة عملك». وبعد أن قرأ جياقوي قنغ رسالة الرسام، أصبح - على النقيض - غير مستقر بشكل أكبر، وكتب تقريرا إلى المصلحة حول توقفه عن العمل واحتفاظه بالوظيفة، وحمل حقيبة السفر على ظهره متوجها إلى مركز المقاطعة.

أقام جياقوي قنغ في مركز المقاطعة مدة خمس سنوات، وفي البداية شمله الرسام برعايته، وجعله يسكن في حجرة الرسم التي تشهد حاليا التجهيزات. وتلك الحجرة كانت أصلا وحدة سكنية تتألف من أربع حجرات وتم تعديلها. وبدأ مشروع التعديل في التو عندما حضر جياقوي قنغ إلى مركز المقاطعة. وينبري جياقوي قنغ ويتولى مسؤولية الإشراف على المشروع. وما يطلق عليه الإشراف عبارة عن أن يركز اهتمامه ونظراته على عمال البناء والتجهيز، ويرى الأشياء الثانوية التي يحتاجون إليها من المسامير أو براميل الدهان الأبيض، ويشترها بالإنابة عن صاحب المنزل. وهناك حجرة من بين تلك الحجرات الأربع لا تحتاج إلى تجهيزات، إنها مخزن المواد الخام الخاصة بالرسام، والتي تحتوي على كثير من البومات رسوم الرسام. وأقام جياقوي قنغ في تلك الحجرة. وبدأ متأثرا جدا لأنه عثر في التو على كتاب «هاوك نيه يشرح التصوير» بين مجموعة كبيرة من البومات الرسوم. ومن ذلك الحين، يأخذ ذاك الكتاب بيده دائما ويدردش

مع عمال التجهيزات. وحتى لو لم يستطع أن يأخذه في يده، فإنه يضعه في مكان يتمكن كثيرون من رؤيته. ويضرب طاولة أعمال النجارة بالكتاب، ولا يكثر إذا كان هذا التصرف يعوق الأعمال التي يضطلع بها العمال أم لا؟ ثم يسألهم: أتعرفون ذلك الأجنبي؟ وطبعاً، العمال لا يعرفون، وكذلك لا يريدون أن يعرفوا ذاك الأجنبي. وفي موقع العمل داخل الحجرة تختلط معاً أصوات المنشار الكهربائي والأساس والأزميل، والأسمنت وبلاط الجدران. ويدل تصرف جياقوي قنغ على أنه لا حول له ولا قوة، ويتسم بالسخرية أيضاً. وهناك مقولة تستطيع فقط أن تفسر سلوكه ومفادها: إنه يريد أن يخبر هؤلاء العمال: على الرغم من أنه - في الوقت الحاضر - يعيش معهم في حجرة واحدة، ولكن أنا وأنتم لسنا واحداً، وفكري منخرط في الفن. ولكن العمال لم ينظروا إليه من عل، من جراء ذلك إطلاقاً، لاسيما عندما يطلب المشاركة معهم في مصاريف الطعام.

ينتهج الرسام أسلوباً واضحاً في التعامل، فيما يتعلق بتكاليف معيشة جياقوي قنغ وطعامه، حيث طلب من الخادمة أن ترسل الأرز، والدقيق، والبيض، وزيت الطعام وغيرها، إلى جياقوي قنغ، بالإضافة إلى أن الرسام يعطيه خمسمائة يوان كل شهر حتى تنتهي أعمال التجهيزات. وذلك تعبيراً عن امتنانه وشكره إياه لاضطراره بـ «الإشراف» على عملية التجهيزات. وكان تفكير الرسام شاملاً وواقعياً أيضاً. ولكن جياقوي قنغ يحمر وجهه ويشعر بأنه من الصعب قبول ذلك، ويفكر في ماهية ذاته إذا قبل عطاء الرسام على هذا النحو، فالرسام أغدق عليه بتكاليف

المعيشة الجيدة والطعام، ويساعده في إنجاز أعماله الصغيرة لبضعة أشهر، فهل هناك مصاريف حياتية أخرى؟ وعقد العزم على رفض ذلك. يقول الرسام: أنت تحتاج إلى النقود، وتبدو النقود أكثر إلحاحا وأهمية في المدينة. وأنت عندما ترسم تحتاج إلى شراء الألوان، وريشة الرسم، كما أنك تدخن أيضا. جياقوي قنغ تنقصه الثقة بالنفس، ولكنه يتكلم باعتزاز قائلاً: أطلب من أسرتي أن ترسل إليّ نقودا، شقيقتي الصغيرة تمد يد المساعدة إلي. الرسام يدرك إدراكا كاملا حقيقة الأمور، وترتسم ابتسامة على ثغره ويقول من الأفضل أن نعطي لك النقود. ويمتلك جياقوي قنغ تكاليف المعيشة، بل حتى يوفر ثمن الطعام أيضا إذا قدم إليه الرسام الدقيق والأرز كل يوم ليتناول طعامه. ولكن كما ذكرنا أعلاه أنه إنسان خامل وكسلان، فضلا عن أنه ليست لديه أطماع في النقود، ويؤثر تناول وجبات طعامه في مطعم صغير، وينفق فلوسه في الطعام. ويغض الطرف عن طبقة سمكة من الغبار والأتربة التي تختلط فيها النشارة والأسمنت وتغطي أكياس الأرز والدقيق ولال البيض في حجرة نومه. بينما يرى عمال النجارة ذلك ويقولون إنها خسارة، إنها حبوب غذائية جيدة. ويقول جياقوي قنغ: إذن، أعطيها لكم. والعمال يطبخون الوجبات الثلاث في حجرة الرسم كل يوم، ويعملون بجد واجتهاد، والحجرات التي تشهد الترتيب والتجهيزات قدرة جدا، ولكن العمال لا يهتمون بالطهي، ويهتمون بالتغذية الجيدة، ويوزعون السعرات الحرارية في أجسامهم توزيعا مناسباً، حيث يوزعون بجلاء الأيام التي يتناولون فيها السمك المقلي، وأيام

اللحم المسلوق، ويعينون المسؤول عن شراء الخضروات، والمسؤول عن الطبخ. ويشعر جياقوي قنغ بالإعجاب بهم في أعماقه، لأنهم ثلة من الأفراد يتحلون بالمهارة الفنية. وينجزون الأعمال بطريقة منهجية ونظامية، وبإدراك كامل. وعندما يحمل بيده الصغيرة الطعام الذي طبخه العمال في أوقات فراغهم، يشعر - في لمح البصر - بمركب النقص. والآن أكثر ما يعوزه هو الوقت، لدرجة أنه لا يستطيع أن يعقد العزم أن يطهو لنفسه وجبة طعام. وأين يكمن هدفه؟ لقد حضر أصلا إلى مركز المقاطعة من أجل دراسة الفن، ولكنه بات إنسانا بلا عمل ينتظر - بصفة خاصة - تناول الطعام المجاني الذي يطبخه عمال التجهيزات. ويتمتع بالفرص العديدة لتقليد أعمال الرسام، كما يستطيع الذهاب معه إلى موديل الرسوم. ولكنه لا يعرف لماذا دائما لا يحرك ريشته، كأنما هناك دائما هدف أكثر غموضا، وأكثر مثالية ورفعة يعوقه عن تحريك ريشته. وكانت النتيجة أن ذلك الهدف الأسمى ينأى عن الواقع بشكل أكبر.

(٣)

اكتملت عملية تعديل حجرة الرسم بعدئذ. ويقوم الرسام بتقديم جياقوي قنغ إلى دور النشر لأنه زعم أنه يعشق التصوير في سويداء قلبه بعد قراءته لكتاب «هاوك نيه يناقش التصوير». وبعد أن التحق بدار النشر، أصبح - بصفة مؤقتة - عاملاً مؤقتاً في حجرة تحرير الرسوم. وكان ينام في المكتب مدة عدة سنوات، واستطاع تماماً أن يتقبل مكرها أحوال مرقده. ومعاملته للناس وأخلاقه الكريمة جعلاه يصادق عدداً من الأصدقاء والنقود التي يكسبها كانت محدودة. وعلى أي حال، كان يدعو الآخرين إلى تناول الطعام، سواء اشتغل أم لا. وبعد انقضاء فترة طويلة، حضر إلى مركز المقاطعة بعض أصدقاء الأصدقاء من مكان آخر، وذهبوا إليه يبيتون عنده ويزاحمون في المكتب الذي ينام فيه. وكان يسافر في مهمة مع هيئة التحرير أحياناً، ويوفد للسفر للاضطلاع ببعض الأعمال الثانوية التي لا قيمة لها أحياناً أخرى. وهناك محافظة معينة تبغي توسيع نطاق شهرتها، وتريد طبع دليل السياحة الذي يحتوي على الصور المنوطة بالمقالات، كلاهما في حالة رائعة من أجل الدعاية للمحافظة، وتتعهد دار النشر بإنجاز ذلك العمل، ويتحمل

جياقوي قنغ مسؤولية التقاط الصور، ويرتدي سترة كبيرة على غرار صحافي التصوير، والتي تغص بالجيوب في الأمام والخلف. وكانت مهمته تصوير بضعة مناظر سياحية وأنواع عديدة من المنتجات المحلية الخاصة، مثل: فخذ الخنزير الإمبراطوري، والدجاج المشوي المشهور منذ مائة سنة. ومن أجل تصوير طبق فخذ الخنزير الإمبراطوري ويضع دجاجات مشوية، كان يأكل مجاناً ويسكن مجاناً في مصلحة السياحة التابعة لتلك المحافظة، وقد استغرق التصوير شهرين على غير المتوقع. وإذا حثته المحافظة على السرعة في العمل، يقول: العمل المتأني يعطي نتائج ممتازة. وبعد فترة طويلة، تستعيد ذاكرته حياته منذ عدة سنوات خلت، وبالتأكيد يتذوق طعم الحياة خلال هذين الشهرين بشكل خاص ودقيق جداً، حيث كان يقيم في حجرة خاصة في دار الضيافة التابعة لمصلحة السياحة ويرافقه مسؤول هذه المصلحة، ويقدم له الوجبات الثلاث يومياً، ويخاطبه باحترام قائلاً: الصحافي جيا. ولم تشهد حياته مثل تلك الأيام قط، وتفجرت ينباع أفكاره المولعة بالفضن داخل أروقة حجرته المفردة الفاخرة. كما انتشر في تلك الحجرة الفاخرة بقوة أكبر خموله الذي لا يقل مثقال ذرة عن ولعه بالفضن. وكان يغط في نوم مسهد دائماً ولا ينهض من فراشه، ويتناول طعام الإفطار متأخراً في الساعة العاشرة. وكان يتطلع بشغف إلى من يقاسمه متعة الحرية والأيام الجميلة. وركب هاتف المسافات الطويلة في حجرته، واتصل بالفتاة شياومي في بكين. وفي عطلة نهاية الأسبوع،

تستقل شياو مي الحافلة السريعة، وتغشى تلك المحافظة من أجل زيارة جياقوي قنغ.

وفي تلك الأثناء، تزوجت شياو مي، وأقامت في بكين لعدة سنوات، وكانت تساعد خالتها الكبرى دائما في تشغيل دكان أدوات الضنون الجميلة. وعرفت شياو مي - في ذاك الدكان - كثيرا من المواد الخام التي تستخدم في الرسم، كما عرفت العديد من الأنواع المختلفة للطلاء التحضيري للرسم الزيتي على قماش الرسم. كما عرفت أيضا أن الرسامين يشتررون الصمغ العربي ويغلوونه ويستخدمونه في الطلاء التحضيري. وكان ذلك في منتصف القرن الفائت. وفي الوقت الحاضر، أصبح الطلاء التحضيري لقماش الرسم جاهزا. وبالإضافة إلى ذلك، هناك أنواع عديدة وكثيرة من أقمشة الرسم التي تدهن - عند بيعها - بالطلاء التحضيري وتصبح جاهزة للاستعمال. ويتردد لسانها إلى حد ما أن تخبر جياقوي قنغ بتلك الأشياء، كما أنها لم تعد توليه اهتماما من جراء ذلك أيضا، وطبعاً، إنها تقدر ليس استخدام الصمغ العربي مرة أخرى، بل ما تقدره وتثمنه هو تطلعاتها إزاء الحضارة والرومانسية في ذاك العام. وبسبب أن شياو مي الواقعية هي الحقيقة، ولذلك حماسة الرومانسية التي غمرتهما وهما يجلسان على جبل الأحجار السوداء في مسقط رأسهما باتت أكثر شبهاً بما جمعته ولمتته في الماضي البعيد. إن دكان أدوات الضنون الجميلة في بكين لم يجعل شياو مي تنسى نفسها وتعتقد أنها انخرطت في الفن، بل على العكس، اكتشفت هنا أن هناك مسافة كبيرة بينها وبين الفن.

وتفكر بموضوعية أنها - في الواقع - منذ زمن بعيد لا تدري أنها لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا. وتتقبل باحترام ذاتي وحكمة المساعي الحثيثة من قبل الشاب الذي يعمل في دكان تصنيع إطارات الصور المجاور. وتغادر شياومي بيت خالتها الكبرى بعد زواجها، وتعتمد على مهارة ذاك الشاب والحفاظ على الزبائن القدامى، ثم يفتتحان دكانا لإطارات الصور خاصا بهما، ويستوردان المواد الخام مباشرة من كوريا الجنوبية، وكانت أسعار بضاعتهما أرخص من سائر الدكاكين الأخرى، فتمتعا بالسمعة الطيبة أيضا. ولم تعرف أيامهما الثراء، ولكنهما ينعمان بالاستقرار والهدوء.

تتبادل شياومي، التي تنعم بالهدوء والاستقرار، المعلومات مع جياقوي قنغ دائما. وترى أنه انتقل فعلا إلى دار النشر على مستوى المقاطعة، وتعتقد أن مركز المقاطعة قبل أخيرا مهارته وكفاءته واهتمامه. كما أنها قبلت دعوة جياقوي قنغ باعتباره صديقا قديما موثوقا به، وتكن له دائما المشاعر السرية من التأثر الشديد. ومنذ عدة سنوات خلت، وعندما كانت تودعه في جبل الأحجار الأسود، إذا لم يكن رجلا شريفا مستقيما، فإنه يستغل جيشان عواطفهما آنذاك، وهي تكاد تكون على مقربة من «خطوة خاطئة قد تورث الندم مدى الحياة». وتتمتع شياومي ببعض خبرات الحياة، وتعرف أن الرجال من ذوي الشرف والاستقامة على هذا النحو ليسوا كثيرين. ووصلت بسلام إلى تلك المحافظة، وحظيت بالترحيب الحار المخلص من قبل جياقوي قنغ. إن الحجرة الخاصة في دار الضيافة، والسترة

الكبيرة التي يرتديها جياقوي قنغ، وآلة التصوير فوق الطاولة، وبكرة الفيلم، وفيلم القلب (*) - تدل جميعها على أن أحوال جياقوي قنغ لا بأس بها. جياقوي قنغ يقنع شياومي بطريقة المواربة والمراوغة في أثناء تناول طعام الغداء؛ إنه - في الأصل - كان ينتقل إلى معهد الرسم ليكون رساما متخصصا، بيد أنه سمع أن الرسامين هناك يتعهدون بعمل ملح من الاضطلاع بالأعمال الفنية ويقدمونها هدايا في عيد المرأة، وعيد الطفولة، وعيد العمال، والعيد الوطني، وأنه يمقت كثيرا ذلك ولا يتفق مع مساعيه الفنية. يخاطب شياومي بصوت عال، وثرغره مفعم بالدخان، ويلفظ بنفخة عظام الدجاج تارة، إنه عظام الدجاج المشوي الذي صورته في تلك المحافظة، ويعود أدراجه إلى حجرته بعد الغداء. وتطلب شياومي أن تشاهد فيلم القلب الذي صورته، ويسحبها إلى النافذة ويجعلها تسلط ضوء الشمس على الفيلم. تشاهد شياومي صورا كثيرة للدجاج المشوي وأفخاذ الخنازير. وبعد أن يفحص تعابير اليأس على وجه شياومي، يقول جياقوي قنغ شارحا موقفه أن الدجاج المشوي وأفخاذ الخنازير كانا أمرا بالمصادفة ولديه كثير من التصورات الفجائية إزاء المناظر في ذلك المكان، وكل ما في الأمر أن التقاط الصور يحتاج إلى الوقت حقا. أجل، الوقت، إنها الكلمة التي يؤكد عليها بصورة أكثر بهجة.

الوقت متأخر، وتستعد شياومي للمغادرة، وقبيل الوداع تهدي ساعة معرفة لأوقات الفراغ والتنزه لجياقوي قنغ ماركة

(*) تحويل الصورة الموجبة إلى سالبة والعكس بالعكس. [المترجم]

«أديس». وقالت إن هذه الساعة ليست رفيعة المستوى، ولكنها مناسبة للاستخدام خارج المنزل، كما أنها أكثر ملاءمة له في تلك الأيام. وتطلب منه أن يمد ذراعه، وتضع الساعة بنفسها فوق معصمه. كما ذكرت أنها عندما تباع أدوات الفنون الجميلة ترى الأشخاص من أوساط فن الرسم يروحون ويحيئون ويشترون تلك الأدوات، وفي بعض الأحيان، تتخيل أن جياقوي قنغ يدفع باب الدكان ويدلف إلى الداخل، ويطلب منها أن ترشده لابتلاع أدوات الفنون الجميلة، وهي تساعد في الاختيار ويشترى بسعر الجملة. كما قالت في حنو وود إن تجارة إطارات الصور تنطوي على المبالغة والغلو، وإذا كان لديه رسوم فنية ويحتاج إلى إطارات للصور، فإنها وزوجها يقدمان له الاستشارة. تسح دموع جياقوي قنغ بعد أن سمع كلمات شياومي. وبعد أن استقلت الحافلة الأخيرة للمسافات الطويلة، ينخرط في نوبة حقيقية من الاستهجان الذاتي. إن جياقوي قنغ لا تعوزه إطلاقاً القدرة على محاسبة الذات، ويفكر متى شغل ذاته وأضفى عليها الشغف بالمظاهر هكذا؟ وهل من المعقول أنه لا يشبه الإنسان المخادع أمام شياومي؟ ولكن هل يضمّر في نفسه أهدافاً خبيثة؟ إنه خدعها حتى لا يجعلها تشعر باليأس نحوه أبداً. والخداع القائم على هذا المقصد، كيف يكون نوعاً من النوايا الحسنة؟! ينهمك جياقوي قنغ في النوم المسهد مرة أخرى في خضم فترة طويلة من الفوضى الفكرية من الاستهجان الذاتي والتبرير الذاتي. وفي اليوم التالي، تناول طعام الإفطار متأخراً أيضاً، بعد الساعة العاشرة صباحاً.

ويعد ذلك، مصلحة السياحة في تلك المحافظة لم تتحمل - بصفة عامة - «تباطؤ العمل» من جانب جياقوي قنغ حقا، وتستشاط غضبا، وتبلغ دار النشر التي بدورها استدعت جياقوي قنغ وأبلغته بذلك، وبالإضافة إلى ذلك، فإن مسؤولي دار النشر تقدموا بطلب صرفه من العمل في نهاية المطاف. وتشهد دار النشر عملية الإصلاح، ويتقدم إليها نضر كبير من الشباب الذين تلقوا تعليما جيدا، ويتحلون بالخبرة العملية في العمل، ولا يرغب أحد في استخدام جياقوي قنغ ذي الضعالية المتدنية هكذا، ويده خاملة على هذا النحو، حتى لو كان ذاك الرسام المشهور قدمه إلى دار النشر. ويبدو أن جياقوي قنغ لا يستطيع المكوث في مركز المقاطعة، وربما يجب أن يعود إلى محافظته، يرجع إلى مصلحة السياحة في محافظته. ولكن مصلحة السياحة الصغيرة التابعة للمحافظة تشهد عملية إصلاح أيضا، وتوَلَّى المناصب فيها من خلال المنافسة، ووظيفة المصمم الفني قد تبوأها آخرون. وعقدت المصلحة اجتماعا في وقت مبكر لمناقشة هذا الموضوع، وفي ضوء سياستها اعتبرت جياقوي قنغ - في الواقع - أنه ترك عمله بصورة تلقائية. وتزامن مع ذلك أن شقيقته التي تمنحه مساعدات مالية أو عينية لم تعد تقدم له تلك المساعدات؛ لأن طفلها سوف يلتحق بالمدرسة المتوسطة الخاصة. جياقوي قنغ يزور الرسام ليغدق عليه بأفكاره، ويراه الأخير أنه يتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه من شدة الخجل، ويقول المكان الأسلم بالنسبة إليك ربما أن ترجع أدراجك إلى المحافظة.

(٤)

في اليوم التالي لعودته إلى المحافظة، يغشى جياقوي قنغ مطعم جيو تشنغ ويجلس في حجرة خاصة ويحتسي الخمر. ومنذ خمس سنوات خلت، النشاط التجاري في مطعم جيو تشنغ جيد دائماً، وفي وقت قريب، وصل جيو تشنغ الطابق الأول بالطابق الثاني. وعندما سمع أن جياقوي قنغ عاد من المقاطعة دعاه - بصفة خاصة - إلى تناول الطعام. وينطوي ذلك على بعض التباهي والتفاخر. والأهم من ذلك التعبير عن الشاعر القديمة تجاه معارفه القدامى. ومركز المحافظة صغير جداً، والذي لا تراه فيه لعدة سنوات هو العدو. كما أن ذاك المركز يجعلك تتولد لديك الشاعر الحميمة المتفردة لهذا المكان الصغير. ومن المؤكد أن جيو تشنغ مازال لديه الألاعيب الصغيرة المنحطة، كما وصفه جياقوي قنغ، بيد أنه لا يعامل الآخرين بأسلوب جارح إطلاقاً. وجياقوي قنغ يشعر أصلاً بالخزي أن يدعو الآخرين إلى تناول الطعام، ونظراً إلى أنه لا يمتلك ثمة شيئاً يمكن الاعتماد عليه في هذه الدنيا، ومن ثم بات خالي الوفاض حقاً. فضلاً عن أنه حتى لم يستطع الحفاظ على مسكنه الخاص التابع لمصلحة السياحة، واضطر إلى أن

يببت في منزل شقيقته بصورة مؤقتة. وعلى أي حال، إذا رفض دعوة جيو تشنغ ربما يجعل ذلك الطرف الآخر يرتاب فيه، كأنما عاد إلى مسقط رأسه غير مكمل بالفخار، ولا يحمل في جعبته مآثر جديدة يتباهى بها في مركز المحافظة. إذن، يجب عليه أن يلبي دعوة جيو تشنغ.

يدخل جياقوي قنغ الحجرة الخاصة في المطعم، وفي معصمه ساعة «أديداس» مهداة من شياومي، ومرتديا سترة التصوير الكبيرة المهداة من دار النشر عندما ترك عمله بها. ويقول بمجرد أن أجلس الآن أشعر بالصداع، خصوصا عندما رأت عيني الطاولة الزاخرة بالخضروات، وكنت في المقاطعة ناكل اليوم بيوم، وأستطيع أن التهم طاولة وليمة بعشرة آلاف يوان، ولا أتناول الطعام مرة أخرى. ويسأل جيو تشنغ: هل لديكم طعام خفيف هنا؟ يتحرى جيو تشنغ فخامة جياقوي قنغ، ويقول في عجالة يوجد طعام قوقحان المروج النيئ البارد، ثم يطلب جيو تشنغ من خادمتين أن تقوما على خدمته على وجه الخصوص. جياقوي قنغ لم يقترب من الجنس الناعم ردحا طويلا، ويشعر بالارتباك ويجول ويصول في الحديث معهما. ويشعر بأنه يجب أن يكون الضن مدخل حديثه، حيث يكمن موطن قوته. ويقول: هل تعرفان ما يطلق عليه الرسم الزيتي؟ أتعرفان الرسم الزيتي... يتم رسمه على أي شيء؟ أتعرفان ما الطلاء الذي يدهن به قماش الرسم الزيتي؟ أتعرفان اسم ذلك الصمغ؟ تضحك الخادمتان ضحكة مكبوتة، وهما تألفان الضيوف والكوادر والتجار، بيد أنهما لم تعرفا شخصا مثل جياقوي قنغ

على هذا النحو، ولا تفهمان كلامه، ولم تبدوا اهتماما بكلامه، وما علاقتهما بدهان قماش الرسم بالصمغ، وحتى ما اسم ذلك الصمغ، أمعقول أنهما تهتمان وتقدران ذهنهما في تخمين ذاك الاسم؟ ولا يمكن ذلك إلا إذا شبعنا واتخمنا. جياقوي قنغ لم يتلق إجابة من الخادمتين، ولم يستطع - أخيرا - أن يكتب صرخته قائلا اسمه الصمغ العربي، «الصمغ العربي»، آه - على غرار ما فعل منذ عدة سنوات خلت عندما أخبر شياو مي وجيو تشنغ اسم ذاك الصمغ. ولكن، ونظرا إلى أن الخادمتين الواقفتين أمامه سمعتا كلامه بلا مبالاة هكذا، فإن الصوت الذي تفوه به من «الصمغ العربي»، وهو أصلا من الحضارة، بدا ذلك الصوت منعزلا متخلفا. وإذا - في ذلك الحين - غير طريقة كلامه، فمثلا يأخذ كما يشاء علكة ملقاة على طاولة الطعام، ويقول لهما: أتعرفان العنصر الأساسي في تركيب العلكة؟ إنه الصمغ العربي! وربما يثير اهتمام تلك الخادمتين إذا تصرف وتكلم على هذا النحو: من لم يمضغ علكة؟! حسنا، في الصين عدد الذين يمضغون العلكة ليس قليلا، ولكن الذين يعرفون أن العنصر الأساسي في العلكة هو الصمغ عددهم بالتأكيد ليس كثيرا. وللأسف، فإن معرفة جياقوي قنغ بالصمغ العربي تقتصر فقط على الطلاء التحضيري لقماش الرسم الزيتي، ومن ثم، حضوره لا يزال عاجزا عن جذب هاتين الخادمتين في المطعم بمركز المحافظة. يشعر بعدم الارتياح بعض الشيء، ثم يسأل الخادمتين قائلا: هل تعرفان الدول العربية؟ بالتأكيد تعرفان العراق، البقعة الساخنة في المعمورة. تعرف الخادمتان

أن العراق يخوض حرباً ضد الولايات المتحدة، ويذيع التلفاز ذلك كل يوم، ولا تعرفان أكثر من ذلك، وعلى أي حال، ما علاقة ذلك كله بجياقوي قنغ؟ إنه ليس عائداً من بغداد، كما أنه لا يهتم بتلك الحرب حقاً، إنه يهتم ب... يهتم ب...، آه، ما الذي يهتم به في نهاية المطاف؟ ويظهر الارتياح الذي في قلبه فجأة، ويصيبه الفزع إذا كشف النقاب عنه. وعلى كل حال، إنه يفتقر إلى الشجاعة الحقيقية كتحمل مسؤولية ذلك الارتياح، ثم يغير دفة الحديث، ويتباهى بالموديلات التي رسمها في المقاطعة، ولا يعرف عددها، ومعظمها عاريات، وأثمانها باهظة، وكان أجره يحسب بالساعة. وكلامه في هذا الموضوع جذب اهتمام الخادمتين. وجيو تشنغ الذي يذرع المكان جيئة وذهاباً ويقوم على رعاية الزبائن، يجلس ويحدق في جياقوي قنغ الجالس أمامه من أعلى إلى أسفل، ولسان حاله يقول: أنت استأجرت هاتين الخادمتين حقاً، أليس كذلك؟ ويشمر جياقوي قنغ عن ساعده حتى يراه جيو تشنغ، ويبين للحاضرين الساعة الفارهة «أديداس» في معصمه، ويقول: رأيتم مثل هذه الساعة؟ إنها هدية من موديل. لم أرسم مجاناً، بل أعطاني ساعة أيضاً. وعلام يدل ذلك؟ يدل على تباين المستويات بين البشر. واهتمام الإنسان بالفن ينبع من ممارسة الفنان نفسه للفن! يقول ويخلع الساعة ويضعها بقوة على الطاولة، قائلاً: ولكن، أليست هذه الساعة زهيدة الثمن، وسوارها من البلاستيك الجديد الذي لا أتحملة، لا أتحملة حقاً، آه، جلدي يعاني من الحساسية. ثم يخبط على الساعة الممددة على الطاولة، كأنما

هي عبء فوق كاهله، واضطر أن يتحمل هذا العبء من أجل إقامة أواصر الصداقة، وهل هناك في جعبة جيوتشنغ كلمات يتفوه بها أمام مثل هذه الساعة التي لا ريب فيها؟ كلا. وجميع الجلساء في الحجرة الخاصة لا يرتابون في الثقة إزاء جياقوي قنغ في التو. ويعد ذلك من سفائف الأمور في مركز المدينة، كما يعد من الأشياء المحبوبة أيضا. جيوتشنغ لا يدخر وسعا، ويحث جياقوي قنغ على احتساء الخمر ويشجعه على تناول الخضراوات، ويدفع أمامه طبق قوقحان المروج النئ. جياقوي قنغ يلتقط بالعودين كمية كبيرة من قوقحان المروج ويمضغها، وفي تلك الأثناء يستغرق في التأمل والتفكير العميق، إنه ربما يحتاج إلى اللحوم بشكل أكبر، فمنذ مغادرته لتلك المحافظة التي التقط فيها صورا للدجاج المشوي، وهو يتحمل ثمن الطعام على مضض. وعلى أي حال، إنه لا يستطيع أمام جيوتشنغ المبتذل الكشف عن رغائبه وتطلعاته، وأن تغذيته ليست جيدة. وبينما يمضغ بملء فمه قوقحان المروج، يرى خادما يدخل من الباب الخارجي ويخبر جيوتشنغ بأن رئيس المحافظة قد حضر ودلف إلى الحجرة الخاصة المجاورة. ينهض جيوتشنغ في التو ويخرج بسرعة وتتبعه الخادمتان.

بقي جياقوي قنغ وحيدا في الحجرة الخاصة بالمطعم، وفي يده العودان، يمكنهما الانطلاق صوب اللحم فوق الطاولة. وعلى كل حال، طاولة الطعام تكفي لأن يأكل ويشرب في هدوء وأناة، ويضيع العودين، وبات كله آذان صاغية لأن مناقشة الموضوعات في الحجرة المجاورة جعلته يدرك فجأة مدى أهمية مركز المحافظة

بالنسبة إلى رئيس المحافظة. ويصغي بأذنيه، وينبعث صوت مبهم لتبادل العبارات الودية، وكان صوت جيوتشنغ بارزا، ومنظر رئيس المحافظة مألوفاً، جياقوي قنغ يستغرق في تفكير عميق. إن مصلحة السياحة بالمحافظة صرفته من عمله، بيد أنه اكتشف على غرة أنه يحتاج إلى وحدة عمل حقا، وربما رئيس المصلحة يبعثه ليصعد الجبل ويحصى عدد الأحجار، وتذكر بوضوح لا يضاهاى وقتئذ تلك السنين التي تصبب فيها عرقه بغزارة وهو يصطحب السياح يصعدون درجات السلالم ذات الحجر الأخضر التي يبلغ عددها عدة مئات، ولذلك ظفر بالتكريم والثناء من قبل المصلحة. إذن، الآن، من يستطيع مساعدته في العودة إلى مصلحة السياحة مرة أخرى؟ لا شك إنه رئيس المحافظة. أجل، ورئيس المصلحة أيضا. ولم يعرهما اهتماما أبدا، واليوم، والآن يرهف السمع لحظة، كما يفكر لحظة، وتثبط همته فجأة أيضا. ولا يزال مصرا على عدم الاكتراث بهما، ونفسه تغلي غضبا. ثم يشعر في الحال بأن الإصغاء إلى كلامهما يعد في حد ذاته سلوكا غير مهذب. ويحتسي بشراة جرعة كبيرة من عرق جيوتشنغ، ويلتهم بسرعة اللحم البقري بصلصة الصويا، ويعلن في سره ابتذال وحقارة جيوتشنغ. ويعقد العزم بقوة على أن يستعيد مركزه ومنصبه كأنه يعتزم اجتياز الجبل الشرقي الشاهق. وأعد لنفسه عدة محاور للنضال والكفاح تحت تأثير احتساء العرق، وينوي الاضطلاع بها في الحال. وإذا لم ينتظر أن يودع جيوتشنغ، فإنه يجب عليه أن ينصرف بسرعة وفي عجلة من تلك الحجرة الخاصة.

وتبقى النوايا - على كل حال - نوايا ورغائب. وفي نهاية المطاف، لم يتصرف جياقوي قنغ بسرعة، بل لعبت الخمر برأسه، وسقط فوق طاولة الخمر حتى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي. وكما نعرف أنه ينهض من فراشه في العاشرة صباحا. ويعد ذلك العمل الوحيد الأكثر تنفيذا والأكثر التزاما من جانبه منذ عدة سنوات خلت. ولكن اليوم الوحيد الأكثر تنفيذا والأكثر التزاما من جانبه، منذ عدة سنوات خلت. ولكن اليوم جياقوي قنغ لا يريد أن يفتح عينيه، ويدرك أنه يمدد جسمه فوق أريكة الحجرة الخاصة، ويعرف أنه ليس ثملا بصورة خطيرة، ويعرف أيضا أنه لا يستطيع أن يمدد طويلا في مطعم الآخرين. كما يعني يجب عليه أن يفتح عينيه حقا.

ولكن إذا فتح عينيه، أيسطيع أن يذهب إلى أي مكان؟ إذن، هل يفتح عينيه أم يواصل التظاهر بالنوم؟ وفي الواقع يعتبر ذلك مشكلة بالنسبة إليه.

د. عبد العزيز حمدي عبدالعزيز

- رئيس قسم اللغة الصينية وآدابها - كلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر.
- من مواليد المنصورة، مصر، ١٩٥٩.
- خريج قسم اللغة الصينية بجامعة عين شمس في العام ١٩٨١.
- اختصاص بالسينولوجيا من دراسة اللغة والأدب والتاريخ والثقافة الصينية.
- له مقالات باللغة العربية عن الأدب الصيني الحديث الكلاسيكي، ودراسة عن الأدباء الصينيين، وأخرى عن الأمثال الصينية والعربية باللغتين الصينية والعربية.
- ترجم المسرحية الصينية «شروق الشمس»، ونشرت في سلسلة «من المسرح العالمي»، وزارة الإعلام في الكويت، مايو ١٩٨٨، العدد ٢٢٤.
- راجع الترجمة الصينية لكتاب «الإمارات العربية المتحدة - شعب عريق ودولة فتية»، الصادر عن دار الثقافة والفنون في ديسمبر ١٩٩٣، بكين، الصين الشعبية.
- ترجم كتاب «الصينيون المعاصرون» من الصينية إلى العربية، إصدار سلسلة «عالم المعرفة»، الكويت، العددان ٢١٠ و ٢١١.
- عضو اتحاد كتاب مصر وعضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة.

لي جيه

- من مواليد بكين - جمهورية الصين الشعبية في العام ١٩٦٦.
- حصلت على بكالوريوس الطب والجراحة من كلية طب العاصمة بكين، الصين الشعبية.
- من مسلمي جمهورية الصين الشعبية.
- تعلمت اللغة العربية وآدابها في المعاهد الأزهرية، القاهرة.
- تقوم بتدريس صوتيات اللغة الصينية وآدابها بقسم اللغة الصينية، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.
- خبيرة الدراسات الإسلامية باللغة الصينية بشعبة الدراسات الإسلامية في كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.

ما صدر من هذه السلسلة

تأليف : ليونيد أندرييف	314	حياة إنسان
تأليف : ميخائيل بولجاكوف	315	دون كيشوت
تأليف : كنيث ياسودا	316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق
تأليف : خلدون طائر	317	ملحمة علي الكاشاني
تأليف : جلال آل أحمد	318	نون والقلم
تأليف : تشاندرا سيخار كامبار	319	سيرى سامبيجي
تأليف : جورج أرويل	320	أيام بورمية
تأليف : ايتالو كالفينو	321	ست وصايا للألفية القادمة
تأليف : ت. س. إليوت	322	السكرتير الخصوصي
تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين	323	قصص برازيلية
تأليف : رولان بارت	324	شذرات من خطاب في العشق
تأليف : جيمز ماكبرايد	325	لون الماء
تأليف : أمريتا بريتام	326	وجهان لحواء
تأليف : اليخاندرو كاسونا	327	المنزل ذو الشرفات السبع
تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين	328	من الأدب الباكستاني الحديث
تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك	329	مختارات من القصة التركية المعاصرة
تأليف : بهرام بيضائي	330	مسرحية محكمة العدل في بلخ
تأليف : بنانا يوشيموتو	331	مطببخ - خيالات ضوء القمر
تأليف : جونتر جراس	332	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة
تأليف : هاينرش فون كلايست	333	شمل تشابه ضائع
تأليف : أندريه شديد	334	حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم
تأليف : فلاديمير هلباتش	335	زهرة الصيف
تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين	336	طام - طام زنجي
تأليف : ليوبولد سيدار سنغور	337	اليبروح
تأليف : نيكولو ماكيافلي	338	منزل النور
تأليف : جوهر مراد	339	كشبان التمل في السافانا
تأليف : تشنوا أشيبي	340	أناطول وجنون العظمة
تأليف : أرتور شنييتسر	341	غرام ميتيا
تأليف : إيفان بونين	342	أرنجنندن والحارس الليلي
تأليف : فيمي أوسوفيسان	343	ورقة في الرياح القارسة
تأليف : تنغ - هسنگ يي	344	مدرسة الدكتاتور
تأليف : إيريش كستتر - تيد هيوز	345	رسائل عيد الميلاد
تأليف : سليمان جيفو ديوب	346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك
تأليف : فريدريش شيلر	347	مسرحية عذراء أورليان
تأليف : سليمان جيفو ديوب	348	حكايات وخرافات أفريقية (2)
		الأدغال والسهول العشبية تحكي

ما صدر من هذه السلسلة

349	القصة القصيرة الإسبانية الأمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحول الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «أنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو	تأليف: هنري برونل
354	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ -2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتري
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام سارويان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروجيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: روبرين دايشيد غونساليس غاليجو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان
369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجي شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثوروفي السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي

374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لارنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لارنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لارنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند أديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
390	ياسمينة (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل إبراهيم
391	المغامرة الغامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كان
392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: أناندا ديفي
393	أنطولوجيا القصة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجد وديوال	تأليف: أمادو همباطي با
395	خرائط (رواية)	تأليف: نور الدين فرح
396	إله الصدفة (رواية)	تأليف: كريستن توروب
397	أزهار عباد الشمس العمياء (رواية)	تأليف: ألبرتو مينديس



تية نينغ

• ولدت تية نينغ في بكين في العام 1957. وهي من أشهر الكاتبات المعاصرات في الصين. بدأت تية نينغ كتابة القصص القصيرة في المدرسة المتوسطة. وبعد أن تخرجت في باودنغ في العام 1975، سافرت إلى الأماكن الريفية لتتعرف على حياة المزارعين الصينيين. وفي السنة ذاتها نشرت دار بكين للنشر قصتها الأولى «المنجل الطائر».

• في العام 2006، عندما كانت في سن التاسعة والأربعين، أصبحت تية نينغ أول وأصغر امرأة منتخبة لرئاسة رابطة الكتاب الصينيين.

• حصلت تية نينغ عن قصتها القصيرة «آه» شيانغ شيوه» على الجائزة الوطنية في العام 1982، كما حازت جائزتين وطنيتين في العام 1984 لقصتها: «القميص الأحمر الخالي من الأزرار» و«موضوع يونيو المهم». كما أنتجت أفلام سينمائية فائزة على قصصها القصيرة.

• في العام 2003، صوّت قراء مجلة «روايات مختارة» على أن تكون تية نينغ واحدة من أفضل عشرة كتّاب في القرن العشرين في الصين.

الأبدية بعيدة جداً

في هذا العدد تقدم الكاتبة تية نينغ في رائعته الأدبية الشخصية النسائية الفريدة الفتاة باي دا شينغ. وتتميز هذه الفتاة بأنها ختصن - دائماً وأبداً - مشاعر متدفقة ولّى زمانها ويغص بها صدرها. فهي مفتونة بالرجل الذي حبه لكنها تفشل في حبها دوماً. فهنا، تسجل لنا الكاتبة جاريها العاطفية في لمحات خاطفة أو في لوحات انطباعية سريعة لا تسلسل فيها ولا استمرار. من هنا، تمضي الكاتبة في البحث عن سر الحياة الإنسانية وعن معنى التجربة الإنسانية. وقد رصدتها كلها في تغيرات المشاعر والعواطف لدى باي دا شينغ. وعندما قامت الكاتبة بإضفاء الطابع الخيري على شخصية الفتاة، فإنها لم تجعل الخير رخصة مرور فعالة للإنسان الخير. بل على العكس جعلتها تتعرض لكثير من المصاعب والأعباء النفسية والانتكاسة في عواطفها ومشاعرها. فحظها مع الحب غير مواتٍ ولا مطيع. في نهاية المطاف، يركع أمامها شاب يحاول الإفادة من ظروفها. وقد تخلص عنها من حبه، إنه الشاب «قوى هونغ». وترفضه. لكنها تفكر ملياً... هل تقبله لاحقاً أم لا؟! كما يحتوي العدد على قصص أخرى للكاتبة نفسها. وهي: «آه» أنت الفتاة شيانغ شيوه». «من يستطيع أن يجعلني خجولة؟!».. وهي قصص شخصيات نسائية أيضاً. بالإضافة إلى قصة «الصمغ العربي».

رقم الإيداع: 2013/632
ردمك: 4-405-0-99906-978